القرآن الكريم من منظور غربي

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
تقديـم
(١) التوثيق
(٢) الاسلوب
(٣) المضمون
(٤) الاعجاز العلمي
(٥) القرآن والكتب الدينية المحرّفة
(٦) التأثير
خاتمـة

تقديم

يعرف معظمنا ما الذي قاله المسلمون أنفسهم ، قدماء ومحدثون ، في كتاب الله : التفاسير والدراسات والابحاث والتقويمات والاقوال والكلمات ، لكننا في هذه الصفحات نحاول أنَّ نضع ايدينا على بعض ماقاله غير المسلمين، (وبعضهم انتمى في نهاية الأمر إلى الاسلام)[1] ، في هذا الكتاب المعجز ، من اجل ان نتابع ، دون محاولات منا للتدخل الا في حالات محددة ، ماتتضمنه هذه الاقوال من مغزى سواء على مستوى سلامة النص القرآني ، مقارناً بالنصوص الدينية الاخرى ، أو على مستوى اسلوب القرآن ، ومضامينه وتأثيراته العقيدية والنفسية والحضارية.

ونحن – كذلك – نعرف مالذي يفعله هذا الكتاب في الذين يقرأونه بلغته العربية المبينة ... كيف يبدّل الافكار ، ويغير النفوس ، ويكهرب الاوصال ، ويلقي هزته في الوجدان ، ويقول للانسان انني لست كتابا كالكتب ولا عملاً كالاعمال ...

سنلتقي ببعض من قرأه بلغته هذه من غير المسلمين ، لكننا سنتابع – كذلك – اولئك الذين قرأوه مترجما الى هذه اللغة أو تلك ، أو مترجمة معانيه بعبارة أدق. ومع ذلك ، مع غياب جماليات اللغة الى حد كبير ، فانه هزهم ، وأدهشهم ، ونال اعجابهم ، وقالوا فيه ما قالوا ... فكيف لو اتيح لهم ان يقرأوه كما انزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟.

مهما يكن من أمر فاننا ، مع اولئك وهؤلاء ، سنقوم برحلة مشتركة لكي نستمع اليهم وهم يتحدثون عن هذا الجانب أو ذاك من كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

بعض القراء يرى ان اعتماد عدد من الشهادات الايجابية لهذا المفكر الغربي أو ذاك ، عن جانب ما من جوانب الاسلام ، يعني في نهاية الأمر تزكية له ، وربما تبرئة لأعماله التي تتضمن في الأعم الأغلب ، سيولا من الشهادات السلبية تقف نقيضة تماما ، ليس للمعطيات الأسلامية فحسب ، بل لبداهاتها وقناعاتها المعروفة كذلك. وهؤلاء القراء من اجل تأكيد موقفهم يستعرضون عددا من النصوص والشواهد المضادة التي تدين فكر (الآخر) وتضعه في الصف التبشيري المتحايل وتدمغه بالمكر الاستشراقي المعروف ، وحتى بجهل اصول العربية وأدابها وهو يتعامل مع كتاب الله.

وهذا صحيح ، بل ان بمقدور المرء أنَّ يشير الى جلّ أعمال الغربيين كشواهد سيئة على موقف الطرف الآخر من الاسلام. ولن يحتاج هذا الى كبير عناء. بل انني ، وأنا اتعامل معها خلال دراسات عديدة تتعلق بالفكر الاستشراقي ، والغربي عموما ، كنت اصل حدّ القرف

---

(١) يتناول الكتاب – أيضاً – معطيات عدد من غير المسلمين ، من الشرقيين أنفسهم ، لكنَ المساحة الأوسع انما هي للفكر الغربي الأمر الذي يفسر عنوان الكتاب.

والاشمئزاز لدى متابعة معطيات هذا الفكر والاستشهاد بمقولاته ، عند التحدث الى طلبة الدراسات العليا الذين اتولى تدريسهم مادة (مناهج المستشرقين).

لكن هذا كله ليس الوجه الوحيد للمسألة ، فهناك وجه آخر يرتبط بمنهج التعامل ارتباطا أكيداً. إذ ألا يمكن أنَّ ننتزع من حلوق الغربيين شهاداتهم الايجابية المتناثرة هنا وهناك ، والتي تمثل في نهاية الامر اعترافا حرا لا يتضمن أي قدر من القسر أو الاكراه ، بالقيمة المتألقة الفذّة لهذا الجانب أو ذاك من الاسلام ؟

فاذا ما أخذنا حذرنا – مسبقا – من التحايل التبشيري والمكر الاستشراقي والأسس العلمانية للفكر الغربي بوجه عام ، فانه ستسقط – ابتداء – لعبة التحايل بالنصوص الايجابية لايقاع الخصم (المسلم) في شبكة الشواهد السلبية التي تدين أو تشوه كل ماهو اسلامي اصيل.

والذي يبقى بعد هذا هو قوة الاعتراف بجانب من الحقيقة التي تصدر احيانا عن متهمين ثبتت جريمتهم أو كادت ، ولكن القضاء يعرف كيف يوظفها لتأكيد الحق. ان المرء ليتذكر أيضا مقولة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ((انما اثمهم عليهم ونفعهم لنا ...)) انها – بحد ذاتها – كلمة حق ، ونحن لو أحسنا انتزاعها والتعامل معها لقدرنا على توظيفها في تيار الجدل المحتدم بيننا وبين الخصوم ، ولحولنا سلاحهم لصالحنا ، ولربما – من يدري – باءوا بالاثم وعدنا بالمنفعة !!

عشرات السنين ونحن نكيل التهم ونصب اللعنات على المستشرقين ومفكري الغرب عموما ، وهذا حق بشكل من الاشكال ، انه ردّ الفعل المناسب لركام من الأباطيل والأضاليل والترهات المرسومة بخبث وعناية. ولكن ماذا لو اضفنا الى هذا جهدا آخر يسعى لمتابعة المعطيات الايجابية والتقاطها – بغض النظر عن اهدافها وعن طبيعة ارتباطها بشبكة الفكر الغربي – لأنها تحمل قيمتها باعتبارها اعترافا بقيمة هذا الجانب أو ذاك من جوانب الاسلام ؟

لم يكن حذر بعض الاخوة القراء ، وحتى دهشتهم ، غائبين عن ذهني ، وانا اكتب سلسلة من المقالات بهذا الاتجاه ، هي حصيلة تعامل مايقرب من الثلاثين عاما مع الفكر الغربي والاستشراقي دراسة وتدريسا وتأليفا ، وهذا – كذلك – وليد قناعة منهجية بان هذا الاسلوب ضروري كضرورة الرفض والهجوم ، لأن ((الحكمة)) – كما علمنا رسولنا (صلى الله عليه وسلم) – ضالتنا ، أنى وجدناها فنحن احق بها ، ومن اي وعاء خرجت (ولنلاحظ عبارة ((من اي وعاء)) فلعلها تخفف بعض الشيء من دهشة القراء).

في مقدمة كتاب لي عن الفكر الغربي تقوم بنيته على الرؤية المنهجية نفسها ، وسيصدر باذن الله في وقت لاحق ، ترد العبارات التالية : ((ان ما قدمه الغربيون عامة والمستشرقون على وجه الخصوص ، يتضمن الأبيض والاسود ، ان على مستوى المنهج أو الموضوع ، وليس كله سواء. ان الرجل منهم قد يتضمن كلامه ، في الوقت نفسه ، الأبيض والاسود معا ،

لأسباب عديدة منها قوة الجذب في حقائق هذا الدين ، ومنها الجهل ببعض المسائل ، ومنها التأثيرات الذاتية والثقافية ... الى آخره. (ان العقل الغربي الحديث – كما يقول سير هاملتون كب[٢]– يعسر عليه بوجه خاص ان يقوم بمحاولة استكناه طبيعة المواقف الدينية لدى اناس تختلف نظرتهم الى الكون اختلافا بعيدا عن نظرة ((الغربي))... ولذا اصبحت أحكامنا الدينية – نحن الغربيين – شديدة الاختلال)[٣] وهنا يجب ان نقف قليلا عند مسألة (حدود النصّ) وضرورة عدم ممارسة الاقتطاع القسري ازاءه ... كيف يتم ذلك ؟ ان علينا أنَّ نلاحظ كيف أنَّ عددا من الشهادات الايجابية بحق الاسلام ، أو جانب من جوانبه ، من قبل هذا المفكر أو ذاك، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات اخرى سلبية تقف موقفا مضادا من الاسلام ، لكن هذا لا يمنع من اعتبار الشهادات الاولى بمثابة اعتراف (حرّ) بهذه القيمة أو تلك من قيم الاسلام ، والتي تدفع الغربيين الى اعلان رأيهم ذاك ، دونما اي نوع من انواع القسر أو الاضطرار . فكشهادات ، وليس كموقف نهائي ، يمكن ان تعتمد للدلالة على ما نحن بصدده. فأما (الشهادة السلبية) فقد فرضت نفسها على نطاق واسع لأنها الاكثر حضورا وانتشارا في الفكر الغربي. ويستطيع المرء أنَّ يجدها بسهولة في معظم الاعمال الغربية التي تمس الاسلام. وأما (الشهادة الايجابية) فهي التي تحتاج الى مزيد من التأكيد والتنسيق واعادة العرض في اطار ملائم ... تلك الشهادات التي إذا ما عرضت على المفكر الغربي اكد صدقها ثانية وثالثة ورابعة، لأنه لم يقلها الا بدافع قدرة الاسلام ، في جانب ما من جوانبه ، على تأكيد تميّزه وتفوقه وفاعليته.

وفي خاتمة بحثي الذي نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج عام ١٩٨٥ ضمن مجلد (مناهج المستشرقين) بعنوان : (المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر : مونتغمري وات)[٤] ترد العبارات التالية بصدد الموقف من سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ((ان المحصلة النهائية التي يمكن ان نصل اليها من خلال التعامل مع دراسات المستشرقين ، أيا كان موقعهم ، انه لايمكن لهذه الدراسات على الاطلاق ، (وبالتأكيد العقلي غير الانفعالي على هذه العبارة الاخيرة) أنَّ ترقى الى مستوى السيرة فتكون قديرة على التعامل معها والتوغل في نسيجها ، وادراك بنيتها بعمق ، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها. ذلك أنَّ هناك اكثر من خلل في (منهج العمل). ولن يتمخض هذا الخلل الا عن

---

(٢) دراسات في حضارة الاسلام : ص ٢٣٥–٢٣٦ (ترجمة د. احسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٦٤م).

(٣) صدر فيما بعد في كتاب مستقل عن دار الثقافة–الدوحة–١٩٨٩م.

(٤) صدر فيما بعد في كتاب مستقل عن دار الثقافة–الدوحة–١٩٨٩م.

حشود من نقاط سوء الفهم والاخطاء على مستوى الموضوع ... الاخطاء التي تنتشر كالبثور على جسد السيرة المترع صحة وتماسكا وعافية. فتشوهه وتنشر على صفحاته البقع والشروخ .

((نعم ، ثمة فرق بين مستشرق وآخر. ونحن إذا قارنا (وات) بـ (لامانس) مثلا، أو حتى بـ (فلها وزن) وجدنا هوة واسعة تفصل بين الرجلين ... يقترب اولهما ويقترب حتى ليبدو أشد اخلاصا لمقولات السيرة من بعض ابناء المسلمين انفسهم ، ويبعد ثانيهما حتى ليبدو شتاماً لعانا وليس باحثا جادا يستحق الاحترام. ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع. فها نحن نقف بعض الوقت عند كتاب (محمد في مكة) لأكثر المستشرقين حيادية ، كما اكد هو نفسه في مقدمته ، وكما قيل عنه ... فاذا بنا نقع على بعض جوانب الخلل في منهج العمل في حقل السيرة : نزعة نقدية مبالغ فيها تصل حد النفي الكيفي واثارة الشك حتى في بعض المسلمات تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتاكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساسا ، واسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة ، واعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص.

((ونستطيع أنَّ نخلص من هذا كله الى انه ليس بمقدور مستشرق على الاطلاق ، مهما كان من اتساع ثقافته ، واعتدال دوافعه ، وحياديته ونزوعه الموضوعي ، الا ان يطرح تحليلا للسيرة لابد ان يرتطم ، هنا أو هناك ، بوقائعها وبداهاتها ومسلماتها ، ويخالف بعضا من حقائقها الأساسية ، ويمارس – متعمدا أو غير متعمد – تزييفا لروحها وتمزيقا لنسيجها العام)).

ان هذا (المنهج) لايف عند حدود السيرة وحدها بل يمضي ، بالمفردات نفسها ، بالرؤية الخاطئة ذاتها ، الى جل ما له علاقة بالاسلام وتاريخه ورجاله وحضارته.

وأظن ان هذا يكفي للاقتناع بأن تحايل العقل الغربي محسوب حسابه ، وأرجو الا اكون متفائلا باكثر مما يجب ان قلت بأنه حتى القارىء العادي (المخلص بطبيعة الحال) يكاد يعرف ذلك ويحسّه. فليس ثمة خشية اذن من أنَّ يأتي الحديث عن المعطيات الايجابية في الفكر الغربي ، بمردود معاكس ، ما دامت الأضواء الحمراء قد أشعلت مسبقا على طريق هذا الفكر ، بفضل تقاليد وتأثيرات نصف قرن أو يزيد ، بحثا عما هو أخضر جميل قد يحمل قيمته البالغة بسبب ندرته.

أما أعداء الاسلام ، من الداخل والخارج ، فلن يضيرهم شيء ان ظللنا نكتب عن الوجه الاسود للمعطى الغربي ... أما الوجه الاخر الذى تطمس عليه ظلمة التعصب وتغطيه ظلال الكراهية ، فان كشفه وتسليط الضوء عليه قد يردهم الى شيء من الصواب وهم يرونه يصدر – بالحق والباطل – عن حشد من اصحابهم !

والى الله وحده نتوجه بالكلمات والاعمال ...

الموصل : عماد الدين خليل

(١) التوثيق

لنبدأ بالتوثيق فهو حجر الزاوية والأساس الذي تبنى عليه سائر المعطيات الاخرى ...

انهم يجمعون على ان النص القرآني ، هو على خلاف سائر النصوص الدينية الأخرى، حافظ على حدوده كاملة ، لم يمسه اي تغيير أو تحريف أو تزوير أو زيادة أو نقصان. لقد ظل، عبر العصور ، كما انزل تماما على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، مكتوبا على الورق ، محفوظا في القلوب والعقول ، مسطرا على الوجدان الاسلامي كلمة كلمة وآية آية وسورة سورة ! ((صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد ... لسبب بسيط وهو ان القرآن قد ثبت في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) ... و(أنه) لم يتعرض لأي تحريف من يوم أنَّ انزل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يومنا هذا))[٥].

ومنذ لحظات التنزيل الاولى ((وأولا بأول – يقول بوكاي – كان النبي صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب وكان الكتبة من صحبه يدونونه. اذن فالقرآن يتمتع ، منذ البداية ، بعنصري الصحة هذين اللذين لاتتمتع بهما الأناجيل ، وظل الأمر هكذا حتى موت النبي (صلى الله عليه وسلم). وفي عصر لا يستطيع فيه الكل أنَّ يكتب ، وان كان يستطيع ان يحفظ عن ظهر قلب ، تصبح التلاوة ذات فائدة لا تقدر ، وذلك لأمكانيات التحقيق العديدة التي تعطيها ساعة التثبيت النهائي))[٦].

ولقد تمت عملية التثبيت النهائي هذه ((اي عملية تثبيت صحة النصّ ، بمنتهى الدقة ، ورئي ضرورة مطابقة الشهادات وذلك لضبط اقل آية تسمح بأي جدل))[٧].

ويرى بلاشير ((ان الفضل يعود الى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لاسهامه قبل سنة (٦٥٥م) في ابعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن ، واليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت كتابهم المنزل على مدى الاجيال القادمة))[٨]

ويذكر لاندو بالمحاولة التي سبقت عثمان (رضي الله عنه) حين ((كلف كاتب الوحي ، زيد بن ثابت (رضي الله عنه) جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب. وكان ابو بكر (رضي الله

---

(٥) موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة). ص ١٥١ (دار المعارف ، القاهرة–١٩٧٨).

(٦) نفسه ، ص ١٥٢.

(٧) نفسه ، ص ١٥٥.

(٨) تاريخ الادب العربي : ٢٢/٢ (ترجمة ابراهيم الكيلاني ، وزارة الثقافة ، دمشق–١٩٧٣–١٩٧٤).

عنه) قد أشرف على هذه المهمة. وفي ما بعد ، اثر جهد مستأنف بذل بأمر من الخليفة عثمان (رضي الله عنه) اتخذ القرآن شكله القانوني الذي وصل الينا سليما لم يطرأ عليه اي تحريف))[٩]

ويلحظ نصري سلهب كيف تلقف اصحاب رسول الله ، (صلى الله عليه وسلم)، آيات القرآن البينات باعتبارها (اثمن من جميع جواهر الارض وأغلى) ، وكيف انهم ((سارعوا ، هلعين ، قلقين ، الى تدوينها وخطها على كل ما يمكن أنَّ تستقر عليه الأحرف والكلمات ... وهكذا قدر لتلك الآيات أنَّ تستقر وتبقى لا في اذهان المؤمنين وذاكرتهم فحسب ، بل في اشياء تحفظ وتقوى على الزمن أكثر مما يقوى عليه البشر الفانون))[١٠] ، وهو يعلن بوضوح بأنه ((لم يقدر لأي سفر ، قبل الطباعة ، أياً كان نوعه وأهميته ان يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام ، وأن يتوفر له ماتوفر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف ، وصانته عما يمكن أنَّ يشوب الأسفار عادة من شوائب))[١١].

أما سوسة ، اليهودي الذي انتمى الى الاسلام ، فيقارن بين النص القرآني وبين مصاحف اليهود ، ويؤكد أنَّ ((التحوير والتبديل)) الذي اصاب تلك المصاحف ((أمر اجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي بنتيجة الدرس والتنقيب ، وقد جاء ذلك تأييدا علميا للاقوال الربانية التي اوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنا على لسان النبي العربي الكريم ، (صلى الله عليه وسلم). أما الفرقان المجيد ... فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة ، فهو حقا الكتاب المقدس الفريد الذي اجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير. وما على القارىء الا ان يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب ... (أولئك) الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهم اجانب غرباء كثيرا مايصوبون اسهمهم الناقدة السامة نحو الاسلام. والواقع ان الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك اي شك في أنَّ القرآن الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير ، وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه ، (صلى الله عليه وسلم) ، دون أنَّ يتغير فيه حرف واحد))[١٢].

وهو يعرفّ القرآن الكريم بأنه ذلك ((المصحف الذي انزل على محمد ، (صلى الله عليه وسلم) ، تلي على الاجداد قبل ثلاثة عشر قرنا ، لم يطرأ عليه شيء من التغيير والتحريف ، هذا

---

(٩) الاسلام والعرب : ص ٢٩٦ (الطبعة الثانية ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت– ١٩٧٧).

(١٠) في خطى محمد : ص ٣٣٦ (دار الكتاب العربي ، بيروت–١٩٧٠).

(١١) نفسه ، ص ٣٣٧.

(١٢) في طريقي الى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٨٦ (الجزء الاول ، المطبعة السلفية ، القاهرة –١٩٣٦ ، الجزء الثاني ، مطبعة العربي ، النجف–١٩٣٨م).

هو أساس الاسلام : كان (مرجع) الشريعة الاسلامية ، وسيكون كذلك الى الابد ، فهو مصحف الله وسنته ولن تجد لسنة الله تبديلا))[١٣].

وهذا نصراني هندي ، أنتمى هو الاخر الى الاسلام ، يشير الى مايمكن اعتباره صمام أمان للنص القرآني على مر العصور ... القدرة على حفظه عن ظهر قلب ، فيما يعد ميزة يتفرد بها القرآن ، وهي ميزة مارست ، منذ اللحظات الاولى ، ولاتزال ، مهمة حماية النص القرآني من اي تغيير ، حتى ولو كان على مستوى حرف أو حركة ! فالقرآن الكريم ، يقول شاد ، ((هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه على ظهر قلب الوف مؤلفة من البشر ، في مختلف بقاع الارض ، بينما نجد أنَّ الكتب المقدسة الاخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط. ومن هنا لو حدث لسبب أو لآخر ان اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور. وهكذا يحق له ان يتباهى بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد ، منذ أنَّ نزل به الوحي على رسول الله ، (صلى الله عليه وسلم). فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أي نوع في القرآن الكريم ، هذا في الوقت الذي تعاني فيه الكتب السماوية الاخرى في نسختها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل. وهذا سبب آخر جعلني أومن بالاسلام))[١٤].

أما الباحثة الايطالية لورا فاغليري فانها تحسم الأمر بتأكيدها على ان القرآن الكريم ((نقلته الينا الرواية الراسخة غير المنقطعة))[١٥] وعلى أنَّ ((نصّه ظل صافيا غير محرف طوال القرون التي تراخت مابين تنزيله ويوم الناس هذا ، وأن هذا النص سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف باذن الله ما دام الكون))[١٦].

فاذا انتهينا الى المستشرق الفرنسي المعروف درمنغهم فاننا سنجده يرجع بنا الى لحظات تنزل الوحي ، والى الظاهرة نفسها لكي يؤكد للقارىء الصدق المطلق في تلقي كلمات الله ، وتثبيتها ، ويبين – كذلك – انفصالها بالكلية عن شخص المتلقى ، وحرصه (صلى الله عليه وسلم) على امانة النقل المطلقة ((لقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يعدّ نفسه وسيلة لتبليغ الوحي ، وكان مبلغ حرصه أنَّ يكون امينا مصغيا أو سجلا صادقا أو حاكيا معصوما لما يسمعه

---

(١٣) نفسه : ١ /١١٦.

(١٤) عرفات كامل العشّي : رجال ونساء اسلموا ، جزء ٧ ، ص ٢٠ (دار القلم ، الكويت–١٩٧٣–١٩٨٣).

(١٥) دفاع عن الاسلام ، ص ٥٦ (الطبعة الثالثة ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٧٦).

(١٦) نفسه : ص ٥٨ – ٥٩.

من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي ، لكلام الله الذي هو أم الكتاب ، الكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة ...))[١٧].

ويمضي درمنغهم يصف معاناة الرسول ، (صلى الله عليه وسلم)، وهو يتلقى كلمات الله ويتعامل معها ... لقد كانت له ((بالوحي آلام كبيرة ... وحالات مؤثرة ، كره ان يطلع الناس عليها ، ولاحظ ابو بكر (رضي الله عنه) ذات يوم ، والحزن ملء قلبه ، بدء الشيب في لحية النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال له النبي : (شيّبتني هود وأخواتها : الواقعة والحاقة والقارعة) وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه فيطبّه بالمراهم ، وكان يدّثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين ، وكان إذا نزل الوحي عليه يتحدّر جبينه عرقا في البرد))[١٨].

وكان (صلى الله عليه وسلم) ((وهو البعيد من انشاء القرآن وتأليفه ، ينتظر نزول الوحي اليه أحياناً على غير جدوى ، فيألم من ذلك ، ويودّ لو يأتيه الملك متواترا))[١٩].

ان هؤلاء الباحثين ، وغيرهم كثيرون ، انما يؤكدون ، وهم يتحدثون عن توثيق النص القرآني وسلامته ، واحدة من معجزات القرآن البيّنة التي اعلن عنها كتاب الله نفسه **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }**[٢٠].

---

(١٧) نفسه : ص ٢٧٩ ((الطبعة الثانية ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٩)).

(١٨) حياة محمد ، ص ٢٨٣.

(١٩) نفسه : ٢٨٥.

(٢٠) سورة الحجر : (آية ٩).

(٢) الاسلوب

الاسلوب القرآني هو المضمار المتفرد الآخر الذي يبهر أبصار اولئك الباحثين ويدهش عقولهم ، على الرغم من أنَّ بعضهم كما ألمحنا لم يمسك تماما بتلابيب العربية ويتمكن منها ، ولعله لم يتعرف عليها ابتداء ((ان الاسلوب القرآني – يقول فيليب حتى – مختلف عن غيره ، ثم انه لا يقبل المقارنة باسلوب آخر ، ولا يمكن أنَّ يقلد ، وهذا في اساسه اعجاز القرآن))[٢١].

وما يقوله الباحث العربي المسيحي فيليب حتى ، الذي يعرف جيدا كيف يتذوق الاداء القرآني ، يقوله كذلك باحث عربي نصراني آخر هو نصري سلهب الذي يقف عند هذه الظاهرة فيطيل الوقوف. لقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) ، يقول الرجل ((أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فاذا بهذا الأمي يهدي الانسانية ابلغ أثر مكتوب حلمت به الانسانية منذ كانت الانسانية . ذاك كان القرآن الكريم الكتاب الذي انزله الله على رسوله هدى للمتقين))[٢٢].

ويمضي سلهب لكي يشير الى القيم البلاغية في القرآن ((فالواقع ان هذا القرآن لسحر حلال ... وانه لمن المستحيل على غير العربي ، أو على غير الملم باللغة العربية ، ان يدرك ما فيه من جمال))[٢٣] وتلك اللغة ((التي ارادها الله قمة اللغات ، كان القرآن قمتها ، فهو قمة القمم ، وذلك بأنه كلآم الله))[٢٤].

وليس القرآن ((بلاغة كلمة وجمال لغة فحسب ، انما هو لحن ازلي ، بل انشودة خالدة فيها من الموسيقى ما يطرب ويدني من السماء ، فليس هو بحاجة الى ان يصاغ في لحن لينشد ويرتل ، فلحنه من صلبه ، في تقاطيع سوره وهدهدة كلماته))[٢٥] فليست الكلمات والتراكيب فحسب وانما هي الموسيقى التي تصنعها الكلمات والتراكيب الالهية والتي تنعكس جمالياتها بالتالي على البيان المعماري للقرآن فاذا به كتاب ليس كالكتب ((واذا كنا بالأمس واليوم نطرب لرائع الشعر العربي ... سواء في بيروت أو دمشق أو القاهرة أو بغداد أو تونس أو في أي صقع من اصقاع العروبة ، فانما الفضل في ذلك يعود للقرآن ، وللقرآن وحده))[٢٦] ومرة اخرى ، فان ((غير العربي ، أو غير مالك ناصية العربية ليعجز عن تقدير عظمة القرآن واستيعابها ...

---

(٢١) الاسلام منهج حياة ، ص ٦٢ (تعريب عمر فروّخ ، دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٨٥).

(٢٢) في خطى محمد ، ص ٩٤.

(٢٣) نفسه ، ص ٣٤١.

(٢٤) نفسه ، ص ٣٤٢.

(٢٥) نفسه ، ص ٣٤٣.

(٢٦) نفسه ، ص ٣٤٤.

وليس أدل على صحة ما نقول من أنَّ يطالع القارىء بعض الترجمات ، انه سيدرك ، دون جهد، الفارق الكبير بين كلام الله وكلام مخلوقاته))[٢٧].

أما سوسة ، فان تحوله عن اليهودية الى الاسلام ، كما يشير في مذكراته يرجع الى الايام التي شرع فيها بمطالعة القرآن الكريم للمرة الاولى ((لقد ولعت به ولعا شديدا ... وكنت اطرب لتلاوة آياته))[٢٨] وهو يؤكد ماسبق وأن اشار اليه سلهب من ضرورة الالمام بالعربية لكل من يريد ان يتعامل مع سحر القرآن ((فالواقع انه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية ولم يضطلع بآدابها ان يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي ، وسموّه ، وما يتضمنه من المعجزات المبهرة)) ويتساءل ((هل من مناص للمرء من الإنجذاب الى معجزة القرآن بعد تمعنه في أمية نبيّ الاسلام ووقوفه على اسرار حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ ... فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمية محمد (صلى الله عليه وسلم) برهاناً على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له))[٢٩].

فاذا ما جئنا الى الباحث الفرنسي الكونت هنري دي كاستري فاننا نجده يقف عند هاتين المسألتين وهو يتحدث عن الاسلوب القرآني : التناقض المطلق بين أمية الرسول ، (صلى الله عليه وسلم) ، وإعجاز الأداء القرآني من جهة اخرى ((ان العقل يحار كيف يتأتىء ان تصدر تلك الآيات عن رجل أمي ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الانسان عن الاتيان بمثله لفظا ومعنى. آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جمالها ، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فآمن بربّ قائلها ، وفاضت أعين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن ابي طالب سورة مريم ، وما جاء في ولادة يحيى ، وصاح القس ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى (عليه السلام) ... لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا ان نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الامم عندنا ، غير انه لا ينبغي ان يكون ذلك سببا في معارضة تأثيره في عقول العرب. ولقد اصاب (جان جاك رسو) حيث يقول (من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو انه سمع محمدا (صلى الله عليه وسلم) يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الاذان ويؤثر في القلوب ... لخرّ ساجدا على الارض وناداه : أيها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والاخطار فنحن من اجلك نود الموت أو الانتصار)... وكيف يعقل ان النبي (صلى الله عليه وسلم) ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى

---

(٢٧) نفسه ، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٢٨) في طريقي الى الاسلام : ٥١/١.

(٢٩) نفسه ، ١ /١٨٢-١٨٣.

مع انها في الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها الا القوم العالمون ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك ان يستولي على الافكار ويأخذ بمجامع القلوب))[٣٠].

أما صنوه اتبين دينيه الذي انتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام فانه يذكرنا بما فعله الاسلوب القرآني بالمشركين ... لقد ((احّس هؤلاء في دخيلة نفوسهم ان قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم (صلى الله عليه وسلم) وكلهم كثيرا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الالفاظ الأخاذة التي الهمها ايمان سماوي ، ولم يمنعهم عن الاسلام الا قوة حبهم لأعراض الدنيا ...))[٣١].

واذا كان بعض المشركين قد سحر بالأداء القراني لكن ((اعراض الدنيا) صدته عن المضي في الطريق حتى نهايته ، فان اكثرية المنتمين الاوائل للاسلام من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، كانوا قد استجابوا للنداء بتأثير هذا الأداء المعجز فاذا ((كان سحر اسلوب القرآن وجمال معانيه يحدث مثل هذا التأثير في (نفوس علماء) لا يمتّون الى العرب ولا الى المسلمين بصلة فماذا ترى ان يكون من قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة ؟ ... لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلاّ وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة ، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمّروا فيه ، أهذه الأيات الخارقة تأتي من محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك الامي الذي لم ينل حظا من المعرفة ؟ ... كلا ان هذا القرآن لمستحيل ان يصدر عن محمد ، وانه لا مناص من الاعتراف بان الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البيّنات))[٣٢].

ثم يخلص دينيه الى القول بأن ((الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب الفريد بين أمهات الكتب العالمية ، لاتحتاج منا نحن المسلمين الى تعليل ، ذلك اننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله ...))[٣٣].

---

(٣٠) الاسلام : خواطر وسوانح ، ص ١٨-٢٠ (ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، مطبعة الشعب ، القاهرة - ١٩١١).

(٣١) محمد رسول الله ، ص ١٠٦ (الطبعة الثالثة ، بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري ، ترجمة عبدالحليم محمد ومحمد عبدالحليم محمود ، الشركة العربية-القاهرة-١٩٥٩).

(٣٢) محمد رسول الله ، ص ١١٩-١٢١.

(٣٣) نفسه ، ص ١١٨.

ويؤكد رجل القانون الفرنسي بوازار ان القرآن ((ما زال حتى ايامنا هذه نموذجا رفيعا للادب العربي تستحيل محاكاته)) وأنه ((لا يمثل النموذج المتزن للعمل الأدبي الامثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الادب العربي الاسلامي الذي ابدعه ...))[٣٤].

باحث فرنسي آخر هو جاك رسلر يتحدث عن (روعة القرآن في اسلوبه) وانه انزل ((ليقرأ ويتلى بصوت عال)) كما يشير الى ان ((أية ترجمة لا تستطيع ان تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية ... ويجب أنَّ تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحرا مؤثرا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع احد أنَّ ينكر ان سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في اشعارنا بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان ملهما بجلال الله وعظمته))[٣٥].

ويعود ريسلر في مكان آخر لكي يؤكدعلى انه ليس بمقدور الترجمات ان تنقل ثروة القرآن اللغوية ((إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها. ولذلك يجب ان يقرأ القرآن في نصّه الاصلي))[٣٦].

وينبه الباحث الأمريكي جورج سارتون الى أنَّ ((لغة القرآن على اعتبار انها لغة الله ، كانت بهذا التحديد كاملة ... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الاعلى في التعبير عن المقاصد))[٣٧].

وتصف الباحثة الايطالية لورا فاغليري القرآن الكريم بأنه ((كتاب لا سبيل الى محاكاته)) وأن ((كلا من تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب ، ليس بالطويل اكثر مما ينبغي وليس بالقصير اكثر مما ينبغي)) ثم تتحدث عن خصائصه الاسلوبية فترى أنها تتميز بالتفرد والأصالة وأنه ((ليس ثمة ايما نمط لهذا الاسلوب في الأدب العربي تحدّر الينا من العصور التي سبقته)) وأن ((الأثر الذي يحدثه في النفس البشرية انما يتم من غير ايما عون عرضي أو اضافي بل من خلال سموّه السليقي. ان آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة ، حتى عندما تعالج موضوعات لابدّ ان تؤثر في نفسها وجرسها ، كموضوع الوصايا والنواهي وما اليها. انه يكرر قصص الأنبياء (عليهم السلام) ، وأوصاف بدء العالم ونهايته ، وصفات الله وتفسيرها ، ولكنه يكررها على نحو مثير الى درجة لاتضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع

---

(٣٤) انسانية الاسلام ، ص ٥٢-٥٣ (ترجمة عفيف دمشقية ، دار الآداب ، بيروت-١٩٨٠).

(٣٥) الحضارة العربية ، ص ٣٠-٣١ (ترجمة غنيم عبدون ، مراجعة احمد فؤاد الأهوائي ، الدار المصرية ، القاهرة-بدون تاريخ).

(٣٦) نفسه ، ص ٤٥.

(٣٧) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط ، ص ٣٧-٣٨ (تعريب عمر فروخ ، مكتبة المعارف ، بيروت- ١٩٥٢).

الى موضوع من غير ان يفقد قوته. اننا نقع هنا على العمق والعذوبة معا – وهما صفتان لا تجتمعان عادة – حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقا كاملا فكيف يمكن ان يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا يتمّ اي منها عن أدنى موهبة شعرية ؟))[٣٨].

وتذكرنا فاغليري بالتحدي الحاسم الذي اعلنه محمد (صلى الله عليه وسلم) ، في مواجهة المشركين ، وبسقوط هؤلاء وعجزهم عن الاستجابة بسبب استحالتها المطلقة ((فعلى الرغم من أنَّ محمدا (صلى الله عليه وسلم) دعا خصوم الاسلام الى أنَّ يأتوا بكتاب من مثل (القرآن) ، أو على الأقل بسورة من مثل سوره ... وعلى الرغم من ان اصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا قلائل في بلاد العرب ، فان احدا لم يتمكن من أنَّ يأتي بأي أثر يضاهي القرآن. لقد قاتلوا النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأسلحة ، ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السموّ القرآني. ذلك أنَّ الكتاب الى جانب كماله من حيث الشكل والطريقة ، قد اثبت انه ممتنع على التقليد والمحاكاة حتى في مادته))[٣٩].

ويوغل المستشرق البريطاني السير هاملتون كب في تفحصّ الظاهرة الاسلوبية للقرآن ، وتأثيرها العجيب في الوجدان البشري ((فالذي يمنح القرآن قوة على تحريك قلوب الناس وتشكيل حياتهم ، ليس هو محتواه من مبادىء ونذر)) كما يستنتج كب بنظرة ذات بعد أحادي ((وانما لموسيقاه اللفظي ، إذ يتكلم كأسفار النبوءات في التوراة بلغة الشعر ، وان لم يخضع لقيود الشعر من وزن وقافية. واذا كان المرء يعني بالشعر ما يكاد يشبه السحر في نظم الالفاظ ، حتى تحدث صدى ويتردد صداها في العقل ، وتفتح منظورات طويلة للبصيرة ، وتخلق في الروح سموا يحلق بها بمنأى عن عالم المادة ، وينور جنباتها بفيض فجائي من الشعاع ، فذلك بالضبط هو ما يعنيه القرآن لدى المسلم. والدليل على ان هذا ليس محض تصور ليس هو التجربة الشخصية فحسب ، بل ان مبدأ الاعجاز يعتمدعلى خصائصه الفنية والجمالية بقدر ما يعتمد على محتواه الغني الغزير))[٤٠].

وهو يقارن بين القرآن وبين الكتب المقدسة الأخرى. فلا يستغرب الا يجد المسلم في اي منها ((شيئا من هذه الصفة الشعرية الشعورية ، وهذه القوة على تأييد ملكة الرؤى الحدسية وتقويتها ، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن

---

(٣٨) دفاع عن الاسلام ، ص ٥٦–٥٧.

(٣٩) نفسه ، ص ٥٧.

(٤٠) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٥٦ (ترجمة احسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين ، بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين ، بيروت–١٩٦٤).

وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة. غير ان هذا ليس هو كل شيء هنالك إذ تقف شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه مرتبطة ارتباطا لاانفصام له بالقرآن ، بروابط من المشاعر الحارة التي يسبغها الحب الانساني ، مكملة للقدرة العقلية في تعاليمه للجوانب الشعرية في لغته))[٤١].

ولا ينسى كب ان يشير الى معضلة ترجمة القرآن الى اللغات الاخرى ، والى انها لقيت المعارضة من بعض رجالات الاسلام الذين يجد كب في موقفهم ما قد يبرره ((فعلى الرغم من ان النص العربي يظهر في بعض الأحيان مقترنا بترجمة تركية أو فارسية أو أوربية وغيرها من اللغات ، فان هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها الى حد ما بشكل عقلاني ، مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني العلمي. والواقع ان القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع ، إذ ليس بالامكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية ، ولا يمكن ان يعبر عن صوره وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أنَّ تدرس طويلا قبل أنَّ ينبثق المعنى للقاريء. وفي القرآن كذلك صور تلعب فيها موسيقى النغم دورا لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها افكار الشخص الذي يصغي الى القرآن لتلقيّ تعاليمه. ولا شك أنَّ تأويل كلمات القرآن الى لغة اخرى لا يمكن الا ان يشوهها ويحول الذهب النقي الى فخار))[٤٢].

وتذهب النبيلة الانكليزية اللادي ايفلين كويولد ، التي اعتنقت الاسلام ، مذهب كب في ان الترجمة قد لا تؤدي غرضها البتة مع كتاب الله ! ((فالواقع ان جمل القرآن ، وبديع اسلوبه ، امر لا يستطيع له القلم وصفا ولا تعريفا ، ومن المقرر ان تذهب الترجمة بجماله وروعته ، وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب))[٤٣]. وهي تشير بهذا الصدد الى راي طرحه المستشرق الفرنسي الدكتور ماردريك الذي سبق وان كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن ، والذي كان يجد في القرآن من المزايا ما لا يجد في كتاب غيره حيث يقول ((اما اسلوب القرآن فأنه اسلوب الخالق عز وجل وعلا ، ذلك ان الاسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون الا إلهياً. والحق والواقع ان اكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره ، وان سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل اجانب المبشرين يعترفون بالاجماع بعدم امكان اثبات حادثة واحدة محققة ارتد بها احد المسلمين عن دينه الى الآن ، ذلك ان هذا الاسلوب ... الذي يفيض

---

(٤١) نفسه ، ص ٢٥٧.

(٤٢) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ص ٣٠-٣١ (تعريب جماعة من الاساتذة الجامعيين ، المكتب التجاري ، بيروت-١٩٦١).

(٤٣) البحث عن الله ، ص ١١١ (ترجمة عمر أو النصر ، المكتبة الاهلية ، بيروت-١٩٣٤).

جزالة في اتساق منسق متجانس ... كان لفعله الأثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمران يحاول المرء (نقل) تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع مثله بلغة اخرى ...))[٤٤].

وبصدد تفرد الاسلوب القرآني تجري كوبولد مقارنة تقتبسها عن المستشرق جوهونسون ترى ان وجهة نظره تعبر تماما عن رأي مثقفي الغرب وكبار مفكريهم ، حيث يقول (إذا لم يكن (الأداء القرآني) شعرا ، وهو أمر مشكوك به ، ومن الصعب ان يقول المرء بانه من الشعر أو غيره ، فانه في الواقع اعظم من الشعر، وهو الى ذلك ليس تاريخا ولا وصفا ، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير ، ولا خطبا فلسفية كمحاورات افلاطون ، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلب ، وان كان عالميا في جملته ، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته ، حتى انه يردد في كل الاصقاع ، ويرتّل في كل بلد تشرق عليه الشمس))[٤٥].

أما المفكر الإنكليزي كويليام الذي أعتنق الاسلام ، أيضاً ، فيصف القرآن بأنه ((من الوجه العلمي ، ويصرف النظر عن أنه كتاب موحى به ، ابلغ كتاب في الشرق ... وهو يتفجر بالمعجزات السامية ويفيض بالاستعارات الباهرة))[٤٦] ويشير الى انه عثر في دائرة المعارف العامة Populare Encyclopedia) على نبذة نصّها كما ياتي ((ان لغة القرآن معتبرة بأنها من افصح ما جاء في اللغة العربية ، فإن ما فيه من محاسن الانشاء وجمال البراعة باقيا بلا تقليد ودون مثيل))[٤٧].

ويخلص كويليام الى القول بأن هذا القرآن ((هو كتاب الحكمة ، فمن اجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع اساليبه وما فيها من اعجاز رآه وقد مرّ عليه من الزمان الف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ، ومع ايجازه مفيد للمرام بالتمام ، وكما انه كان يرى مطابقا للكلام في زمن ظهوره لهجة واسلوبا كذلك يرى موافقا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة وكلما ترقت صناعة الكتابة قدرّت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه. وبالجملة فأن فصاحته وبلاغته قد اعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الاولين والآخرين))[٤٨].

---

(٤٤) نفسه ، ص ١١٢-١١٣.

(٤٥) البحث عن الله ، ص ١١١-١١٢.

(٤٦) العقيدة الاسلامية ، ص ١١٩-١٢٠ (تعريب محمد ضيا ، مطبعة هندية ، القاهرة-١٨٩٧م).

(٤٧) نفسه ، ص ١٣٩-١٤٠.

(٤٨) أحسن الاجوبة عن سؤال أحد علماء أوربة ، ص ٢٣-٢٥ (ترجمة معروف الرصافي، مطبعة الولاية ، بغداد-١٢٣٠هـ).

حتى إذا ما بلغنا المفكر والفنان الانكليزي المعروف روم لاندو ، فاننا نجده يؤكد ماسبق ان اعلنه عدد من الباحثين والمفكرين الذين المحنا اليهم من أنَّ ترجمة القرآن الى لغة اخرى يكاد على المستوى الجمالي أنَّ يكون عملا مستحيلا ، وذلك " بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الايقاعية ، الى لغة اخرى ، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية الى العلم ، فاننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت ان تتلقف شيئا من روح الوحي المحمدي ، والواقع ان كثيرا من المترجمين الاوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب ، بل كانوا الى ذلك مفعمين بالحقد على الاسلام الى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والتعرض . ولكن حتى افضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أنَّ تحتفظ بايقاع السور الموسيقي الآسر على الوجه الذي يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربي أنَّ يدرك شيئا من روعة كلمات القرآن وقوتها الا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الاصلية))[٤٩].

ويمضي لاندو الى القول بأن بين آيات قصار السور ترابطا ايقاعيا بالرغم انه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق أنَّ سماع السور تتلى في الاصل العربي ، كثيرا ما يخلّف في نفس المرء اثرا شبيها بأثر السحر أو التنويم المغناطيسي. لقد أريد بالقرآن ان يتلى في صوت جهير ويتعين على المرء أنَّ يسمعه مرتلا لكي يحكم عليه حكما عادلا ويقدره حق قدره ... وبوصفه كلمة الله الحقيقية كان معجزا لاسبيل الى محاكاته ، ولم يكن ثمة ، بكل بساطة ، ايما شيء من مثله))[٥٠].

وينقل المستشرق الانكليزي سير توماس ارنولد رأيا عن الكاتب الاسباني الفار Alvar الذي عرف بتعصبه ضد الاسلام ((يقرر فيه أنَّ القرآن قد صيغ في مثل هذا الاسلوب البليغ الجميل ، حتى أنَّ المسيحيين لم يسعهم الا قراءته والاعجاب به ...))[٥١].

ولا يسعنا اخيرا الا أنَّ نشير الى ان المستشرق الفرنسي بلاشير يكاد يكون من اكثر الغربيين الذين تعاملوا مع القرآن الكريم عطاء عن الموضوع ، وبسبب من تخصصه بالعربية كان بمقدوره أنَّ يقترب من القرآن اكثر وبخاصة في كتابيه المعروفين (تاريخ الأدب العربي)

---

(٤٩) الاسلام والعرب ، ص ٣٦-٣٧ (الطبعة الثانية ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت-١٩٧٧).

(٥٠) نفسه ، ص ٢٩٧.

(٥١) الدعوة الى الاسلام ، ص ١٦٨ (الطبعة الثالثة ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة-١٩٧١).

و(القرآن) ، واذ سبق وأن افردنا لمقولاته عن القرآن الكريم بحثا في غير هذا المكان ، فلا مبرر لإعادة القول فيه مكتفين باحالة القارىء اليه[٥٢].

(٥٢) انظر البحث الخاص ببلاشير بعنوان : (بلاشير : الوجه الاخر للاعجاز) من كتاب (الاسلام والوجه الأخر للفكر الغربي : قراءات).

(٣) المضمون

حتى إذا ما جئنا الى (المضمون) فاننا سنجد غير المسلمين يقولون فيه الكثير ، وسنضطر من أجل تحديد مسار المعطيات وايضاحها الى أنَّ نقسمها الى مقاطع عدة نتناول في احداها التقويم العام للمضمون ونقف في الاخرى عند العلاقة بينه وبين نتائج العلم الحديث ومعطيات العقل ، وفي مقطع ثالث سنتابع وجهات نظر مقارنة بين القرآن والكتب الدينية الاخرى لكي نخلص اخيرا الى التأثيرات المختلفة والعميقة التي تمخضت عن كتاب الله.

ولنبدأ بالتقويم العام حيث يبدو رجل القانون والمفكر الفرنسي مارسيل بوازار واحدا من اكثر من كتبوا عن الموضوع غزارة ومقاربة.

إنه يعرّف القرآن بأنه ((كلام حيّ في قلب الجماعة ... وهو بين الله والانسانية ((الوسيط)) الذي يجعل اي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى ، لأنه مرضيّ به مرجعا اصليا وينبوع الهام أساسيا))[٥٣]. انه مرشد روحي ونظام خلقي وقانون دنيوي معا))[٥٤] وهو يرفض ((الفصل بين الروحي والزمني)) لأنه ((دين ونظام اجتماعي))[٥٥] وهو ليس كتابا مرحليا أو تعليما موقوتا ((لإصلاح عرب الجاهلية !)) انه ((على العكس ، يحمل الشريعة الخالدة والكاملة ، والمطابقة للحقائق البشرية والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة))[٥٦] ، وهو الكلام النهائي الذي لا يتحول ولا يتبدل ، وهو يحمل ويمثل (الشريعة) التي لاتغفل عن مخاطبة عواطف الانسان الداخلية وفطنته وعقله ، ويتطلب التقيّد بما فيه جهدا معنويا دؤوبا))[٥٧]. والقرآن ((يخاطب الانسان بكليته : اعمق مشاعره – حسنة كانت ام سيئة – وعمله اليومي من منظور قد نستطيع نسبته الى (علم النفس التطبيقي) ...))[٥٨]. وهو ((حجر الزاوية في الاخلاقية الاسلامية. انه لا يصف الانسان بمفهومه الما ورائي (الغيبي) لأن الروح من أمر الله وحده ، ولكنه يأمره بسلوك ينبغي اتباعه)) و((يحدد الموجبات المترتية على المؤمن في جميع حقول الحياة ، ويعرفّه بواجباته سواء كانت نحو الله أو نحو المجتمع))[٥٩] ويوفر للمؤمنين رباطا روحيا

---

(٥٣) نفسه ، ص ٥٢.

(٥٤) نفسه ، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٥٥) نفسه ، ص ٢٠٦.

(٥٦) نفسه ، ص ٢٠٩.

(٥٧) نفسه ، ص ٦٤.

(٥٨) نفسه ، ص ١٢٧.

(٥٩) نفسه ، ص ١٤٢ ، ١٤٦.

ونفسانيا وقانونيا ذا جوهر ديني))[٦٠] وأخيراً فإن ((مفهوم القرآن للعالم)) يسهم ((إذ يقدم الخليقة على أنها كل متناسق ومتوازن في التبعية لله ، في رصّ بنيان المجتمع إذ يغدو تجمع المؤمنين نظاما يتبوأ فيه كل انسان مكانه الحقيقي))[٦١].

فنحن إذا ازاء تقييمات للقرآن الكريم تمنح القارىء ، الاجنبي بخاصة ، تصورا دقيقا وموضوعيا عن كتاب الله ، إذ قد صيغت بدقة وتركيز بالغين وتضمنت الملامح الأساسية للمضمون القرآني ، واكدت على مرتكزات وقيم طالما ندّت عن العقل الغربي العلماني وبخاصة تلك التي تتعلق بالارتباط بين الديني والدنيوي ، وبالامتداد نحو النظام الاجتماعي ، وبالاستمرارية والشمولية ، والقدرة المذهلة المتواصلة على التأثير ، والتي يتميز بها المضمون القرآني.

ونحن هنا لسنا بصدد شرح وتحليل مايقوله الاخرون عن كتاب الله ، لأنه واضح بيّن يكشف عن مغزاه لكل ذي عينين ، ومن ثم فأننا لن نحاول ان نطيل على القارىء باكثر مما فعلنا، في محاولة استخلاص المؤشرات الاساسية لمقولات الرجل ، ولنتابع ما يقوله الاخرون.

درمنغم يشير الى أنَّ القرآن ((معجزة محمد (صلى الله عليه وسلم) الوحيدة)) وأن ((أسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال ... الى يومنا هذا يثيران ساكن من يتلونه ، ولو لم يكونوا من الاتقياء العابدين)) ولقد ((كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يتحدىّ الإنس والجن بأن ياتوا بمثله ، وكان هذا التحدي أقوم دليل على صدق رسالته)) ثم يخلص الى القول بأن هنالك بالتأكيد ((ما يجب ان يبحث به عن سر نفوذه وعظيم نجاحه))[٦٢].

دي كاستري يؤكد بدوره أنَّ القرآن يعد ((دليلا على صدق رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ...)) وأنه لا يزال الى يومنا هذا سرا من الاسرار التي تعذّر فك طلاسمها ، ولن يسبر هذا السرّ المكنون الا من يصدّق بأنه منزل من الله))[٦٣].

ويرى اتيين دينيه ((ان معجزات الانبياء الذين سبقوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) كانت في الواقع معجزات وقتية ، وبالتالي معرضة للنسيان السريع بينما نستطيع ان نسمي معجزة الآيات القرآنية : (المعجزة الخالدة) وذلك أنَّ تأثيرها دائم ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أنَّ يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله. وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي احرزه الاسلام ، ذلك الانتشار الذي لايدرك سببه الأوربيون لأنهم يجهلون القرآن ، أو لانهم لا يعرفونه الا من خلال ترجمات لا تنبض

---

(٦٠) نفسه ، ص ٢٢٩.

(٦١) نفسه ، ص ١٤٧.

(٦٢) حياة محمد ، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٦٣) الاسلام : خواطر وسوائح ، ص ٢٠.

بالحياة فضلا عن انها غير دقيقة))[٦٤] وهو يتساءل : هل ان ((هذه الآيات الخارقة تأتي من محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك الأمي الذي لم ينل حظا من المعرفة ؟)) ثم يجيب : ((كلا ! ان هذا القرآن لمستحيل أنَّ يصدر عن محمد ، وأنه لامناص من الاعتراف بان الله العلي القدير هو الذي املى تلك الأيات البينات))[٦٥].

ويتحدث الباحث الفرنسي المعاصر ريسلر عن المضمون المعرفي للقرآن فهو ((فوق أنه كتاب ديني)) فإنه يتضمن ((خلاصة جميع المعارف)) ولقد ظل ((زمنا طويلا اول كتاب يتخذ للقراءة الى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية))[٦٦]. كما يتحدث عن شمولية القرآن وتوحيده بين الديني والاخلاقي والقانوني ، وآخذه بيد المظلومين ، ورفضه للشر والبؤس والخرافة ((ان القرآن يجد الحلول لجميع القضاايا ، ويربط مابين القانون الديني والقانون الاخلاقي ، ويسعى الى خلق النظام ، والوحدة الاجتماعية ، والى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. انه يسعى الى الأخذ بيد المستضعفين ، ويوصي بالبر ويأمر بالرحمة ... وفي دائرة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي ، ونظم العقود والمواريث ، وفي ميدان الاسرة حدّد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس ، الخ ...))[٦٧] وهذه الشمولية القرآنية يلحظها لوبون ، أيضاً ، فيصف كتاب الله بأنه ((قانون ديني وسياسي واجتماعي))[٦٨].

وعن القيم الخلقية التي يؤكدها كتاب الله ويدعو اليها يقول سيديّو المستشرق الفرنسي المعروف : ((لا تجد في القرآن صفحة لا توحي بمحبة شديدة لله ... وفيه حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي ... وفيه دعوة كبيرة الى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم ، وفيه مقت للعجب والغضب ، وفيه اشارة الى أنَّ المذنب قد يكون بالفكر والنظر ، وفيه حضّ على الايفاء بالعهود حتى مع الكافرين ، وتحريض على خفض الجناح والتواضع ، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون اليهم ، لا لعنهم ... ويكفي جميع

---

(٦٤) محمد رسول الله ، ص ١١٨.

(٦٥) نفسه ، ص ١٢٠-١٢١.

(٦٦) الحضارة العربية ، ص ٤٥.

(٦٧) الحضارة العربية ، ص ٥١.

(٦٨) النتائج الاولى للحرب (عن محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جزء ١ ، ص ٧٤ ، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة-١٩٦٨).

تلك الاقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدا لاثبات صفاء قواعد الاخلاق في القرآن ... انه أبصر كل شيء ...))[٦٩].

ويلحظ بلاشير ذلك التوازي المعجز في النص القرآني بين الآني والمستقبلي ، بين المرحلي والدائم ، وبين الارتباط بالتاريخ والتحررّ منه ((ان النص القرآني واقع في مجال اخر بعيدا عن مجال التاريخ ، فهو ينزع الى اعلى مع بقائه في حيّز التاريخ))[٧٠] والواقع ان هذه الثنائية المذهلة التي قلما التفت اليها الباحثون لتمثل واحدة من أشد الخصائص القرأنية اهمية وارتباطا في الوقت نفسه باعجاز المضمون القرآني بأعتباره حصيلة رؤية الهية شاملة تتعامل مع الجزئي والكلي ، مع الموقوت والدائم ، ومع النسبي والمطلق ... تتغلغل في شرايين التاريخ وتتجاوزه في الوقت نفسه مصعدّة صوب الأعلى باتجاه مستويات انسانية لا تخضع لمقولات التاريخ المرحلية المحدودة ولا تأسرها النسبيات.

اننا لو حاولنا متابعة أسلوب النزول لرأينا حشودا من التفاصيل والجزئيات التاريخية ، بل والشخصية التي قد لاتستحق أنَّ تكون ذات قيمة تاريخية ومع ذلك فان التعاليم القرآنية ، بسبب من واقعيتها ، لا تتخلّق في الفراغ ، انما هي ، وفق احدث النظريات التعليمية والتربوية تقترن شرطيا بهذه الواقعة المنظورة أو تلك ، ولكنها ما تلبث أنَّ تتحرر منها لكي تكون تعليما مطلقا لا يحده زمان أو مكان ، أو تأسره وقائع وجزيئات مما تتمخض عنه حركة التاريخ ، ولن يكون بمقدور انسان مهما امتلك من لماحية وذكاء أنَّ يحقق هذا الوفاق العجيب بين ماهو كائن وما يمكن أو يجب أنَّ يكون !

ان هذا يذكرنا باحدى الميزات التي سبق وأن أشار اليها المفكر النمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد) الذي أنتمى الى الاسلام وقدم عنه اعمالا ودراسات تكاد تكون من أدقّ ماكتب عن هذا الدين : ((لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل ان الكتاب الذي كنت ممسكا به في يدي كان كتابا موحى به من الله. فبالرغم من أنه وضع بين يدي الانسان منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فإنه توقع بوضوح شيئا لم يكن بالامكان أنَّ يصبح حقيقة الا في عصرنا هذا ، المعقد الآلي. لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والأزمنة ولكن هذا التكاثر لم ينته قط من قبل الى أنَّ يكون مجرد اشتياق الى أمتلاك الاشياء والى ان يصبح ملهاة حجبت رؤية أيما شيء آخر ... اليوم اكثر من أمس وغدا اكثر من اليوم ... لقد عرفت أنَّ هذا[٧١] لم يكن مجرد حكمة

---

(٦٩) تاريخ العرب العام ، (ص ٨٩ ، ٩٨–٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٧) (ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة–١٩٤٨).

(٧٠) تاريخ الأدب العربي ، جزء ٢ ، ص ٤٩.

(٧١) يشير الى سورة التكاثر التي تعبّر باعجاز عن أزمة القرن العشرين.

انسانية من انسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية . فمهما كان هذا الانسان على مثل هذا القدر من الحكمة فانه لم يكن ليستطيع وحده أنَّ يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرين. لقد كان ينطق لي من القرآن صوت اعظم من صوت محمد))[٧٢].

ان هذا التوازي ينطبق ايضا على الأسلوب القراني الذي عرف كيف يخاطب عرب القرن السابع عشر الميلادي ، ويهزّهم حتى الاعماق ، وهو في الوقت ذاته قادر على احداث الهزّة نفسها لدى قارئيه في القرن العشرين والقرن الخامس والعشرين !! فقد تمتلك قصيدة ما أو قطعة أدبية أو فنية هذه القدرة على التأثير بغض النظر عن المرحلة الزمنية ، ولكن هذا لا يعدو أن يكون تأثيرا جماليا صرفا فضلا عن كونه موقوتا. أما التأثير القرآني فانه يختلف تماما. ان يهزّ الأفئدة حتى البكاء يقتلعها من الجذور ثم يعيد تركيبها من جديد فاذا باصحابها شخوص جديدة بالكلية وكأنها بعثت على غير ما كانت عليه !

لنرجع الى ما قاله ((الآخر)) عن مضمونية هذا الكتاب المعجز ، فهم كثر وسيطول بنا السرى لو حاولنا أنَّ نقف عند كل واحد منهم محللّين أو شارحين.

فاغليري الايطالية ترى ((أنَّ معجزة الاسلام العظمى هي القرآن)) وأن ((أنباءه تتصف بيقين مطلق))[٧٣] ، وانه ((ممتنع عن التقليد والمحاكاة)) في اسلوبه ومادته. ((فنحن نقرأ فيه ، الى جانب اشياء اخرى كثيرة ، تنبؤأ ببعض أحداث المستقبل ، ووصفا لوقائع حدثت منذ قرون ، ولكنها كانت مجهولة بوجه عام. ان ثمة اشارات كثيرة الى نواميس الطبيعة والى علوم مختلفة ، دينية ودنيوية. اننا نقع ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تعجز اكثر الناس ذكاء واعظم الفلاسفة واقدر رجال السياسة. ولهذه الاسباب كلها لا يمكن للقرآن أنَّ يكون من عمل رجل غير مثقف ، قضى حياته كلها وسط مجتمع جاف بعيد عن اصحاب العلم والدين ، رجل اصرّ دائما على أنه ليس الا رجلا مثل سائر الرجال فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات ما لم يساعده على ذلك ربّه العليّ القدير. ان القرآن لا يعقل أنَّ ينبثق عن غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والارض))[٧٤].

وثمة برهان آخر يؤكد – كما تلحظ فاغليري – المصدر الإلهي للقرآن ذلك أنَّ نصه بقي كما هو دون أي تزوير أو تحريف[٧٥]. وتلك مسألة سبق وأن وقفنا عند حدودها التوثيقية في بدايات هذا المبحث.

---

(٧٢) الطريق الى مكة ، ص ٣٢٨–٣٢٩ (ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٥٦).

(٧٣) دفاع عن الاسلام ، ص ٥٦–٥٧.

(٧٤) نفسه ، ص ٥٧–٥٨.

(٧٥) نفسه ، ص ٥٨–٥٩.

أما الباحثة الالمانية الدكتورة الس ليختنستادتر التي درست العلوم العربية والاسلامية عن كثب ، فانها تؤكد على المنظور السياسي للمضمون القرآني ، وهو واحد من أشد المعطيات القرآنية اهمية واكثرها حضورا في نسيج السور والآيات ((انه من الضروري لادراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي ، ان ندرك صدق المسلم حين يؤكد أنَّ القرآن يمكن أنَّ يظل أساسا لأداة الحكم المعقدة التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث. فان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرى أنَّ القرآن هو حلقة الاتصال بين الاله في كماله الالهي وبين خليقته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وأيتها الكبرى الانسان. وان واجب الانسان أنَّ يعمل بمشيئة الله للتقريب والتنسيق بين العالم الإلهي وبين عالم الخلق والشهادة ، وخير ما يدرك به هذا المطلب أنَّ تتولاه جماعة انسانية تتحرى اعمق الاوامر الإلهية والزمها ، وهي اوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والاحسان ، وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الانسان لتحقيق نجاحه ، فهو ثم مسئول عن أعماله ومسئول كذلك عن مصيره))[٧٦].

الكتّاب الانكليز أيضاً في امريكا وبريطانيا أدلوا بدلوهم في الموضوع واستقوا الكثير من مائه العذب وقالوا كلمتهم فيه.

في امريكا يلحظ ايرفنج شمولية القرآن المعرفية والتشريعية على السواء فيصفه بانه (حوى كل شيء) و(جميع القوانين) ، وهو يفسر الظاهرة بأن القرآن ((هو خاتم الكتب السماوية))[٧٧]. أما على مستوى القيم الخلقية فان القرآن ((يدعو الى الرحمة والصفاء والى مذاهب أخلاقية سامية))[٧٨].

الصحفية الأمريكية ديبورا بوتر التي اعتنقت الاسلام أخيرا تؤكد ((أنَّ المضمون الالهي للقرآن الكريم هو المسئول عن النهوض بالانسان وهدايته الى معرفة الخلق ، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر))[٧٩].

كات ستيفنز ، المغني الأمريكي المشهور ، الذي انتمى للاسلام أيضا ، يحكي عن أبعاد المضمون القرآني ، بكلمات قلائل ، وبعفوية الفنان المندهش ، ولكنها تعني الكثير ((القرآن يقول الكثير عن الزواج ، وعن العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعن أي موضوع آخر تقريبا))[٨٠].

---

(٧٦) الاسلام والعصر الحديث (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٩ ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت–١٩٦٦).

(٧٧) حياة محمد ، ص ٧٢ (الطبعة الثانية ، ترجمة وتعليق علي حسني الخربوطلي ، دار المعارف ، القاهرة–١٩٦٦).

(٧٨) نفسه ، ص ٣٠٤.

(٧٩) عرفات العشّي : رجال ونساء اسلموا : ١١٣/٨.

(٨٠) نفسه ، ١٠٣/١٠.

ديورانت المؤلف المعروف ، صاحب كتاب (قصة الحضارة) ذي الثلاثين جزءا يتحدث عن تأثير القرآن في الأمة التي تنتمي اليه ، وهو تأثير يتميز بالشمولية والعمق والامتداد . فمنذ اربعة عشر قرنا وكتاب الله ((يستشير خيالهم ، ويشكل اخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال)) ، ومنذ أربعة عشر قرنا ((والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد ، واقلها غموضا، وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس ، واكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له اكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الاخلاقي والثقافي ، وهو الذي اقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضّهم على اتباع القواعد الصحية ، وحررّ عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن احوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الاذلاء الكرامة والعزّة وأوجد بين المسلمين ... درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الابيض))[٨١].

أما الدكتور سدني فيشر أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية ، فإنه يؤكد على شمولية المعطيات القرآنية وتكاملها ، فهو ((كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل مافيه كلاما عن الفرائض والشعائر ، وان الفضائل التي يحثّ عليها المسلمين من اجل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره))[٨٢].

في بريطانيا نلتقي كذلك بالعديد من الباحثين والمفكرين وهم يتحدثون عن كتاب الله ، بعضهم ظل على دينه ، وبعضهم اعتنق الاسلام مادام أنَّ كتابه ومرشده وهاديه هو هذا الكتاب.

هاملتون كب ، شيخ المستشرقين الانكليز ، يردّ على الرؤية النصرانية القاصرة التي لا ترى في القرآن الكريم ، ولا في الاسلام عموماً ، تأكيدا على القيم الخلقية كذلك الذي تمارسه النصرانية ((فإذا رأى أحد – يقول كب – أنَّ إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا اليه ذلك التعريف الشامل للبرّ في تلك الأية العظيمة **{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }**[٨٣].

---

(٨١) قصة الحضارة ، جزء ١٣ ، ص ٦٨-٦٩ (الطبعة الثانية ، ترجمة محمد بدران وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٧).

(٨٢) الشرق الاوسط في العصر الاسلامي (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص ٥٤).

(٨٣) سورة البقرة ، (الآية ١٧٧).

فالبر اذن تاج الايمان الحق ، حين يدرك المؤمن أخيرا أنَّ الله شاهد أبدا ، ويستجيب لشهوده في كل افكاره واعماله[٨٤].

وما يقال عن القيم الخلقية يمكن أنَّ يقال عن الجانب الوجداني في التجربة الدينية ، حيث هاهنا أيضاً تميل النصرانية المحرّفة لأن تحتكر لنفسها ولعدد من الاديان المحرّفة مثلها الغنى الوجداني الذي يمنح البعد الاصيل للتجربةالدينية ، ويبعد بها عن جفاف التعاليم والتشريعات وهياكلها المفرغة التي تنظم شؤون الجماعة ، ولكنها قد لاتمنح الذات خصبا روحيا أو وجدانيا في التعامل مع الله ... ان القرآن ، يرد كب ((سجلّ لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية – تجربة ذات طرفين : واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة ، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الآخذ بنصيب من تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليسكنه روح تعاليمه لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضاً ، فإنه يحاول ان يستملك شيئا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب (صلى الله عليه وسلم). ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه ، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الايمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حيّ للالهام والاستبصار الديني))[٨٥].

واذن فإن كتاب الله قد أمسك بالمسألة من طرفيها كما هو معروف : الجزئي والمطلق... شؤون الحياة الارضية والتجربة الروحية التي تقود المؤمن الى السموات. واذن فإن النصرانية لا تعدو ان تكون تجزيئا للتجربة البشرية ، وجنوحا بالموقف الديني الذي يسعى الى تغذية الوجدان البشري ، على أرضية مترعة بالشروخ والضغوط والتناقضات ... في عالم مثخن بالفساد والجراح. وهذا لن يكون ... هذا لن يمكن الوجدان من التحقق الديني لأنه سيصيبه بالازدواجية وسيشطره شطرين !

مونتغمري وات الذي يمثل آخر جيل المستشرقين الكبار يتوغل في هذا التوازن القرآني بين الديني والدنيوي ، باتجاه آخر. ان القرآن يعتبر العقيدة ، أو الرؤية الدينية للعالم هي الأساس الذي تقوم عليه وتتمخض عنه سائر الظواهر والبنى. انها أس الأسس وسبب الأسباب، وبهذا يلتقي ، بشكل من الاشكال مع سلفه كب ، ان القرآن ، يقول وات ((يعتبر قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وانه لا يمكن تقويمها الا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء. وانه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظرا لنجاح جهد محمد (صلى الله عليه وسلم) ...))[٨٦].

---

(٨٤) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٥٤.

(٨٥) نفسه.

(٨٦) محمد في مكة ، ص ١٣٥ (تعريب شعبان بركات ، المكتبة المصرية ، صيدا – بيروت بدون تاريخ).

ونحن نعرف جيدا كيف أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) صرف جهده كله عبر العصر المكي ذي الثلاثة عشر عاما على أمر واحد : تأكيد العقيدة الجديدة ، وتدمير سائر العقائد الجاهلية ، وأنه لم يبدأ البناء التشريعي واقامة الدولة الا بعد ان ضمن سلامة الأساس وعمقه وايغاله في نفوس اصحابه.

واذا كنا قد أشرنا الى اثنين من المستشرقين الانكليز النصارى ، فلنستمع كذلك الى واحد منهم انتمى للاسلام : كويليام ، ما الذي يريد ان يقوله عن القرآن.

انه يبدأ بالتأكيد على ما يتميز به كتاب الله من شمولية ، ومن تناغم بين الثنائيات كافة . تلك الثنائيات التي وضعت الأديان المحرفة والمذاهب الوضعية بينها الحواجز والمتاريس ، فعزلتها عن بعضها وقادتها الى أنَّ تعلن الحرب فيما بينها ، تلك الحرب التي لن يكون ضحيتها سوى الانسان ... ثم جاء كتاب الله لكي يوقف الاقتتال ويعيد الوفاق ، فلم تقتصر احكامه ((على الفرائض الأدبية والدينية. انه القانون العام للعالم الاسلامي ، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية ، ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية الى أمور الحياة الدنيوية ومن حفظ النفس الى صحة الأبدان ، ومن حقوق الرعية الى حقوق كل فرد ، ومن منفعة الانسان الذاتية الى منفعة الهيئة الاجتماعية ، ومن الفضيلة الى الخطيئة ، ومن القصاص في هذه الدنيا الى القصاص في الآخرة ...))[٨٧].

ويواصل كويليام تأكيده على هذه الخصيصة القرآنية فيقول : ((أننا إذا أمعنا النظر الى ما فيه من الاحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجلية نجده جامعا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب اخلاقه ... وكذا نراه ناهيا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الافعال ومساوىء الاخلاق ... وكم فيه ماعدا ذلك أيضا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الاحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلا عن القول))[٨٨]. وهكذا فأن تأمل الاحكام القرآنية ((بعين البصيرة)) والتعامل معها بصدق وجدية ، يقوده كما يؤكد كويليام ، الى الحياة السعيدة التي يطمح اليها كل انسان))[٨٩].

ولا ينسى كويليام أنَّ يشير الى حقيقة أنَّ مرور الزمن ، وتزايد النضج العقلي للانسان وتراكم الخبرات المعرفية هي جميعا لصالح المبادىء والحقائق والقيم التي شملها القرآن ((فكم في القرآن العظيم من غوامض الحكم ودقائق المعاني مالم يعرف حق المعرفة بل لم يسير غوره حتى اليوم ، والسبب في ذلك هو نقصان عقل البشر عنه ، فلا شك أنه سينكشف كلما ارتقت الافكار

---

(٨٧) العقيدة الاسلامية ، ص ١٢٢-١٢٣.

(٨٨) أحسن الاجوبة ، ص ٢٥-٢٦.

(٨٩) العقيدة الاسلامية ، ص ١٣٩-١٤٠.

في درجات الكمال واتسع نطاق الفنون والمعارف))[٩٠]. ان ما تضمنه القرآن ((من المطالب العالية والفنون الغالية ما عرف حق المعرفة الى الآن ، بيد أنه سيأتي زمان يعرف فيه كما هو))[٩١].

ومن العرب غير المسلمين طائفة قرأت كتاب الله بالجدية والموضوعية المطلوبتين ، وخرجت بنتائج وملاحظات عن المضمون القرآني سنؤشر على بعض منها ... ها هنا يزول حاجز اللغة فتكون المعاينة لكتاب الله أشد قربا ، ويكون التعبير اكثر حرارة وصدقا.

ويصف ابراهيم خليل احمد ، رجل الدين القبطي الذي اعتنق الاسلام ، القرآن الكريم بأنه ((معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمن))[٩٢] ، وهو يذكرنا بعبارة فيليب حتي ، المؤرخ اللبناني المعروف التي تقول : ((من جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى))[٩٣]. ويتحدث أحمد سوسة ، اليهودي العراقي الذي انتمى الى الاسلام هو ، أيضاً ، عن القرآن الكريم فيصفه بأنه ((جاء غرةَ ناصعة في صدر التاريخ الانساني ، فريدا في مقامه الالهي)) وان ((العالم سيحتفظ به كتراث سرمدي يمثل كلام الله في خلقه ، ودليل الهداية البشرية الى حياة انسانية جليلة سامية))[٩٤]. ويواصل سوسة حديثه فيقول ((لما كان القرآن الكريم قد تناول كل انواع التفكير والتشريع ، فقد يكون من العسير على انسان واحد ان يحكم في هذه المواضيع كلها)) ويتساءل ((هل من مناص للمرء من الانجذاب الى معجزة القرآن بعد تمعنه في أمية نبي الاسلام ووقوفه على اسرار حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟)) وما يلبث أنَّ يجيب ((لقد جعل الله معجزة القرآن وأمية محمد (صلى الله عليه وسلم) برهانا على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له))[٩٥].

ويكاد يكون نصري سلهب ، المفكر والأديب النصراني اللبناني ، من اكثر الكتّاب حديثا عن كتاب الله ، وان المرء ليلمس في كلماته بوضوح جمرة الاخلاص للحق التي يمنحها القرآن لكل اولئك الذين يتعاملون معه بالعشق المطلوب.

يعرّف القرآن بأنه ((معين روحي وخلقي لا ينضب)) وأن ((من يرده لن يعرف العطش الى روحه سبيلا)) انه ((كلام الله ومن كان كلام الله زاده في الحياة والمعاد فلن تكون نهاية

---

(٩٠) أحسن الاجوبة ، ص ٢٦.

(٩١) نفسه ، ص ٢٨.

(٩٢) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ، ص ٤٧-٤٨ (الطبعة الثانية ، مكتبة الوعي العربي ، القاهرة-١٩٦٥).

(٩٣) الاسلام منهج حياة ، ص ٦٣.

(٩٤) في طريقي الى الاسلام : ١٧٤/١.

(٩٥) نفسه ، ١٨٢/١-١٨٣.

مطافه الا ملكوت السماء !))[٩٦] واننا لبأمس الحاجة الى الاسلام لأن ((قرآنه الرائع)) يمكن ((أنَّ نتعلم منه الكثير !))[٩٧] هذا الكتاب المعجز بما أنه صادر عن الله سبحانه وتعالى فان ((آياته احتوت الحقيقة الأزلية الخالدة التي لا تتبدل بل تتواضح وتتكشف للناس ، ومرافقة التطور في جميع مراحله ... ومنها يعرف المؤمن زادا لحياته ، وسيظل يعرف الى ما يشاء مالك يوم الدين))[٩٨]. وليس في القرآن كله ((ذكر لمعجزة أو لأعجوبة صنعها النبي (صلى الله عليه وسلم) فحسبه ان المعجزة الكبرى كانت بواسطته. حسبه ان الله اختاره من بين البشر لينزل عليهم تلك الثروة التي لم يرو التاريخ ان ثروة بحجمها جاءت على لسان رجل واحد . حسبه ان يكون قد نثر تلك الثروة بحرفيتها على الناس فأفادوا منها جميعهم. وستظل مدى الدهر ينبوعا يرده العطاش والجياع الى الله وملكوته))[٩٩].

وهو يتحدث عن شمولية القرآن وتغطيته لكافة المسائل والمعضلات البشرية فيقول ((لقد كان القرآن وسيضل ، الينبوع الذي راده ويرده المؤمنون ليرووا من معينه عطشهم الى الفضائل ... عطفا على يتيم ، وعطاء لسائل ، ونصرة لضعيف ، وسيفا بوجه ظالم ، ورفقا وتسامحا وعدلا ، ولقد كان وسيضل ، الكتاب الذي وضع لكل مشكلة حلاً ، ولكل سؤال جوابا))[١٠٠]. ويواصل سلهب تأكيده على هذه الخاصية فيقول ((لكأن الله ، ﷻ ، أبى ألاّ أنَّ يجعل من كتابه الكريم محيطا تربويا اخلاقيا ، فعالج اموراً لا تخطر للمرء ببال ، ولا يتوقع أنَّ يجدها في كتاب ظنه سفر ايمان وعقائد دينية فحسب. ولكن غنى القرآن ، بل عظمته ، هي هنا بالذات ، لقد اراده الله هدى ونورا للعالمين يهديهم الى خالقهم عن طريق الحق والخير ، ويضيىء لهم طريق الحياة الدنيا ، فيمضمون فيها بخطى ثابتة اصلاب العزائم منشرحي القلوب))[١٠١].

وانطلاقا من هذه الرؤية فإن القرآن ، كما يلاحظ سلهب ((لا يخاطب المسلمين فحسب، بل ولا يعني بشؤونهم فحسب ، وانما هو يخاطب البشر على اطلاقهم ، ويعني بشؤونهم جميعا ... فلو اقبل عليه البشر وعبّوا من أحكامه وتوصياته فارتووا منها وعملوا بها ، لكانت البشرية في وضع افضل بكثير مما هي عليه))[١٠٢] لكن المشكلة هي ان كتاب الله ((بمحوه

---

(٩٦) نفسه ، ص ٣١ (دار الكتاب العربي ، بيروت–١٩٧٠).

(٩٧) في خطى محمد ، ص ١٢١.

(٩٨) نفسه ، ص ٣٣٥.

(٩٩) نفسه ، ص ٣٣٧.

(١٠٠) نفسه ، ص ٣٤٩.

(١٠١) نفسه ، ص ٣٦٠–١٦٥.

(١٠٢) نفسه ، ص ٣٥٨.

الظلمات)) و((نشره الضياء على الكائنات)) ((يكاد يكون بالنسبة الى غير المسلم مجهولا ، أو هو معروف على غير حقيقته))[١٠٣].

وهكذا تجيء معطيات الباحثين والمفكرين من غير المسلمين في هذا ((الكتاب)) الذي لم يدرك على حقيقته تماما ، ضرورة من الضرورات الموضوعية والعقيدية والمنهجية ، ليس بالنسبة للمسلمين انفسهم بقدر ما هي ملحّة بالنسبة لكافة الجماعات المنتشرة خارج دائرة الاسلام، والتي يمكن ان يكون اقترابها من كتاب الله وفهمها لأبعاده كافة ، خطوة حاسمة قد تقرّبها من الحقيقة المنشودة التي ضلت المسالك اليها ، وقد تمنحها سبل الخلاص.

(١٠٣) نفسه ، ص ٣٤١.

(٤) الاعجاز العلمي

وثمة ما يرتبط بالمضمون القرآني مما تحدث عنه غير المسلمين فاطالوا الحديث. انه – بايجاز – الاعجاز العلمي لكتاب الله.

ويكاد يكون المفكر والعالم الفرنسي المعروف موريس بوكاي على رأس من عالجوا هذه المسألة حتى من الباحثين المسلمين أنفسهم ، ذلك ان الكتاب الذي قدمّه في هذا المجال بعنوان (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم)[١٠٤] هو حصيلة دراسة علمية ميدانية متأنية استغرت السنوات الطوال وتمخضّت ، باعتمادها على منهج موضوعي محايد في العمل ، عن نتائج بالغة الأهمية بصدد المصدر الإلهي الحاسم للقرآن ، وتهافت أية دعوة قد تميل لأن تجعله عملا بشريا.

وبالنظر للقيمة العلمية البالغة للكتاب فقد عالجناه في بحث مستقل في غير هذا المكان[١٠٥] ولذا ستجدنا ملزمين بعدم الوقوف عنده ونحن نتابع نماذج فحسب مما قاله غير المسلمين بصدد الاعجاز العلمي للقرآن.

تقول ديبورا بوتر ، الصحفية الامريكية التي انتمت الى الاسلام عام (١٩٨٠م) ، ((عندما اكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الاجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها ، انه يقدم الينا الأحداث بطريقة منطقية تجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع واسلوب قاطع لا يدع مجالا للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة))[١٠٦]. وتتساءل بوتر ((كيف استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية ، ان يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها ؟)) ثم تخلص الى النتيجة ذاتها التي خلص اليها المتعاملون – بصدق – مع كتاب الله : ((لابد اذن ان يكون هذا الكلام هو كلام الله عزّ وجل))[١٠٧].

وعامر علي داؤد ، النصراني الهندي الذي اعتنق الاسلام ، أيضاً ، يتحدث عن تجربته مع الكتاب الفريد : ((تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الانكليزية ، لانني عرفت أنَّ هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين ، فشرعت في قراءته وتدبر معانيه . لقد

---

(١٠٤) دار المعرفة ، القاهرة–١٩٧٨.

(١٠٥) انظر كتاب (الاسلام والوجه الآخر للفكر الغربي) فصل : بوكاي الاعجاز والتحدي بالعلم.

(١٠٦) رجال ونساء اسلموا : ١٠٠/٨.

(١٠٧) نفسه ، ١٠٩/٨.

استقطب جل اهتمامي وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الاجابة المقنعة عن سؤالي المحّير (الهدف من الخلق) في الصفحات الاولى من القرآن الكريم ... لقد قرآت الآيات (٣٠-٣٩) من سورة البقرة ... وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف ... ان هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق))[١٠٨].

وما دمنا بصدد اولئك الذين قادهم كتاب الله للانتماء الى هذا الدين فلنستمع الى ما يقوله ابراهيم خليل احمد من أنَّ ((القرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه : من طب وفلك وجغرافيا وجيولوجيا وقانون واجتماع وتاريخ ... ففي أيامنا هذه استطاع العلم أنَّ يرى ما سبق اليه القرآن بالبيان والتعريف))[١٠٩]. وهو يشير الى اليقين الحاسم الذي يمكن أنَّ تمنحه حقيقة كهذه لغير المؤمنين ((اعتقد يقينا أني لوكنت انسانا وجوديا ... لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية وجاءني نفر من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث في كل مناحيه لآمنت برب العزّة والجبروت ، خالق السماوات والارض ولن اشرك به أحدا ...))[١١٠].

أما أحمد سوسه فان ميله للاسلام يرجع في أساسه كما يقول في سيرة حياته ، الى الأيام التي شرع فيها بمطالعة القرآن الكريم[١١١] ، وهو يرى ((أنَّ معجزات القرآن الكريم هي أكثر بروزا في عصرنا الحالي ، عصر النور والعلم ، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول))[١١٢].

وعبد الله كويليام الانكليزي المسلم يشير الى المسألة نفسها عندما يقول ((كم في القرآن العظيم من غوامض الحكم ودقائق المعاني مالم يعرف حق المعرفة بل لم يسبر غوره حتى اليوم، والسبب في ذلك هو نقصان عقل البشر عنه ، فلا شك أنه سينكشف كلما ارتقت الافكار في درجات الكمال واتسع نطاق الفنون والمعارف[١١٣]. وعندما يقول ((ان مافي القرآن من المطالب العالية والفنون الغالية ما لم يعرف حق المعرفة الى الآن ، بيد انه سيأتي زمان يعرفه فيه كما هو))[١١٤].

---

(١٠٨) نفسه ، ١١٦/٧-١١٨.

(١٠٩) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ، من ٤٧-٤٨.

(١١٠) نفسه ، ص ٤٨.

(١١١) في طريقي الى الاسلام : ٥١/١.

(١١٢) نفسه ، ١٨٥/١.

(١١٣) أحسن الأجوبة ، ص ٣٦.

(١١٤) نفسه ، ص ٢٨.

وتشير الليدي ايفلين كوبولد ، الانكليزية المسلمة ((الى ماجاء في القرآن عن خلق العالم ، وكيف أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين)) وكيف ((أنَّ العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت اجيالا عديدة))[١١٥].

أما الصحفي والمفكر النمساوي المعروف ليوبولد فايس (محمد أسد) فيتحدث عن خبرته الشخصية في هذا المجال ، وهو يقارن بين ما قالته (سورة التكاثر) وبين التكاثر الذي يأخذ بخناق القرن العشرين ((لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل ، ان الكتاب الذي كنت ممسكا به في يدي كان كتابا موحى به من الله))[١١٦]. وهو يشير الى ان بدء تنزيل القرآن ونقطة انطلاقه في الأساس كان تأكيدا ((لوعي الانسان وعقله ومعرفته))[١١٧].

وثمة من غير الذين انتموا للاسلام من قالوا كلمتهم في هذا الاعجاز فالدكتور ميلر بروز رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه ، واستاذ الفقه الديني في جامعة ييل الامريكية يؤكد، وهو يتحدث عن الاسلام ((أنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الانسان على القوى الطبيعية ، وهناك آية في القرآن يمكن أنَّ يستنتج منها أنَّ المجموعة الشمسية خلقت لكي يدرس الانسان علم الفلك ويستخدمه في حياته : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[١١٨]. وكثيرا مايشير القرآن الى اخضاع الطبيعة للانسان باعتباره احدى الآيات التي تبعث على الشكر والايمان ... ويذكر القرآن – لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب – ولكن يذكر السفن أيضاً ... فاذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا اكثر على سكة الحديد والسيارة والطيارة ؟))[١١٩]. وهو – أي ميلر بروز – يرى ((ان اعظم نتائج العلم يمكن ان تستخدم في أغراض هدمية أو بنائية)) ، وأن هذا ((ربما كان هو المقصود بما ورد في القرآن خاصا باستخدام الحديد : **{... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ... }**[١٢٠]. وأظهر مثال من هذا الآن بالضرورة هو استخدام النشاط الذري – الذي نشطت بحوثه – لضرورة حربية ...)[١٢١]. ويشير كذلك إلى القانون الذي يحكم الكون والذي أكّده اينشتاين بمواجهة الصدفة والاحتمال ، ويقارنه بالآية الكريمة **{وَمَا خَلَقْنَا**

---

(١١٥) البحث عن الله ، ص ٤٥.

(١١٦) الطريق الى مكة ، ص ٣٢٨.

(١١٧) نفسه ، ص ٣٠٣.

(١١٨) سورة يونس ، (آية ٥).

(١١٩) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ، ص ٥١–٥٢ (الطبعة الثانية ، تأليف جماعة من الباحثين ، جمع وتقديم محمد خلف الله ، مكتبة النهضة المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ، القاهرة–١٩٦٢).

(١٢٠) سورة الحديد ، (آية ٣٥).

(١٢١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ، ٥٤.

السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ }[١٢٢] ، فيجد تشابها في الاساس بين الآية وبين الفرضية التي يؤكدها انشتاين.

يوجينا ستشيجفسكا ، الباحثة البولونية المعاصرة ، تلحظ في القرآن الكريم ((حقائق علمية لم يعرفها العالم الا بعد قرون طويلة))[١٢٣]. وفاغليري الايطالية تجد فيه ((تنبؤا ببعض أحداث المستقبل ووصفا لوقائع حدثت منذ قرون ، ولكنها كانت مجهولة على وجه عام)) كما تجد اشارات كثيرة الى نواميس الطبيعة ، والى علوم مختلفة ، دينية ودنيوية وثمة ((ذخائر واسعة من المعرفة تعجز اكثر الناس ذكاء ، واعظم الفلاسفة ، واقدر رجال السياسة)) ، وتخلص الى القول بأنه ((لهذه الأسباب كلها لايمكن للقرآن أنَّ يكون من عمل رجل غير مثقف ، قضى حياته كلها وسط مجتمع جاف بعيد عن أصحاب العلم والدين ، رجل اصّر دائما على انه ليس الا رجلا مثل سائر الرجال فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات مالم يساعده على ذلك ربه الكلي! القدرة. ان القرآن لا يعقل أنَّ ينبثق من غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والأرض))[١٢٤].

وهي تلاحظ جيدا واحدا من المبادىء القرآنية الأساسية في دائرة التعامل مع المعطيات الكونية ، وهي أنَّ القرآن الكريم لا يطرح تفاصيل وجزئيات يحدّ بها من حرية العقل البشري على البحث والاكتشاف ، وانما هو يقدم خطوطا عريضة ... اشارات كبرى ... عن الكون ، ويترك – بعدها – لقوى الادراك البشري أنَّ تمضي في طريق البحث حرة ، نشطة ، طليقة ، لا يصدّها عائق ولا يغلها قيد ، ومن ثم يجيىء هذا النشاط العقلي ، في المنظور الاسلامي ، متوافقا مع مرتكزات الدين ويقينيّات الايمان ، لا مرتطما بها ، متعارضا معها. وذلك على النقيض تماما مما شهدته الكتب الدينية المحّرفة ، الاخرى التي مارست بتفاصيلها غير العلمية ، ومنهجها الخاطىء في اقامة السدود بوجه العقل البشري ، حجزا على نشاطه الحرّ.

ان فاغليري تلخص هذا المنهج القرآني المرن حينما تذكر أنه ((فيما يتصل بخلق الكون فان القرآن على الرغم من اشارته الى الحالة الاصلية ، والى أصل العالم ... لا يقيم أيّما حد مهما يكن في وجه قوى العقل البشري ، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد))[١٢٥].

---

(١٢٢) سورة الأنبياء ، (آية ١٦).

(١٢٣) تاريخ الدولة الاسلامية وتشريعها ، ص ١٧ (المكتب التجاري ، بيروت–١٩٦٦).

(١٢٤) دفاع عن الاسلام ، ص ٥٧–٥٨.

(١٢٥) دفاع عن الاسلام ، ص ٦٠.

والباحثة الالمانية الس ليختنستادتر تؤكد على النقطة نفسها عندما تشير الى ((ان المسلم العصري يعتقد أنَّ كتابه المنزل يسمح له ، بل يوجب عليه ، ان يعالج مشكلات عصرهما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصدّ عن المعرفة كما انتهت اليها علوم زمنه))[١٢٦].

وهناك غير هؤلاء كثيرون ممن تناولوا هذه الموضوعات الأساسية في المضمون القرآني، سواء على مستوى المنهج والمبادىء الأساسية التي يتضمنها القرآن ازاء العلاقة بالعلم والنشاط العقلي بعامة ، أو على مستوى الحقائق والجزئيات العلمية التي لم تكتشف أو تتأكد الا في العصر الحديث.

ولن يتسع المجال للمزيد من الشواهد ، وقد تكون النماذج التي تضمنتّها هذه الصفحات كافية في بحث موجز كهذا.

(١٢٦) الاسلام والعصر الحديث (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ، ص ١٩).

(٥) القرآن والكتب الدينية المحرفة

والذين تحدثوا عن المضمون القرآني لم يفتهم أنَّ يقارنوا بينه وبين مضامين الكتب الدينية (المحرفة). ويكفي ها هنا أنَّ نقف عند بعض هذه المقارنات بالنظر لأهميتها في القيمة النهائية للقرآن الكريم ، كما يقررها ، ويعترف بها غير المسلمين.

على مستوى الموقف من المعطيات العلمية والنشاط العقلي ، يكاد يكون كتاب بوكاي، مرة أخرى[١٢٧] ، والذي هو حصيلة خبرة فكرية وميدانية عميقة وخصبة ، في قمة الكتب التي عالجت هذه المسألة ، واعطت صورة دقيقة موضوعية عن الفارق الحاسم بين القرآن الكريم والكتب الدينية المحرفة : التوراة والانجيل. وقد عرضنا لهذه المسألة في غير هذا المكان ولذا نكتفي باحالة القارىء اليه[١٢٨]. ولكن من الضروري ان نشير هنا الى واحد من استنتاجات بوكاي بهذا الخصوص قبل ان نمضي الى غيره من الباحثين : ((لقد قمت – بقول الرجل – اولا بدراسة القرآن الكريم وذلك من دون اي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثا عن اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت اعرف ، قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، ان القرآن يذكر انواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن كانت معرفتي وجيزة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أنَّ احقق قائمة ادركت بعد الانتهاء منها أنَّ القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب الى ابعد من الكتاب الأول ، أي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل ... فاننا نجد نصّ انجيل متيّ يناقض بشكل جليّ انجيل لوقا Luc ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة امراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الانسان على الارض))[١٢٩].

المستشرق الأمريكي واشنجتون ايرفنج يختصر الأمر بهذه المقارنة المركزة ، والتي تؤشر – بالفعل – على أهم الفروق الحاسمة بين القرآن الكريم والكتب التي سبقته. فلقد ((كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الانسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح (عليه السلام) اتبع المسيحيون تعاليم الانجيل ، ثم حل القرآن مكانهما. فقد كان القرآن اكثر شمولا من

---

(١٢٧) القرآن الكريم والتوراة والأنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).

(١٢٨) انظر كتاب (الاسلام والوجه الآخر للفكر الغربي) فصل (بوكاي والتحدي بالعلم).

(١٢٩) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، ص ١٣.

الكتابين السابقين ، كما صحّح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل . حوى القرآن كل شيء ، وحوى جميع القوانين : إذ أنه خاتم الكتب السماوية ...))[١٣٠].

فها هنا يشير ايرفنج الى التعاقب الزمني للكتب السماوية التي كانت مهمتها أنَّ تأخذ بيد الانسان وفق المرحلة التاريخية التي يجتازها ، والى ان القرآن الكريم كان خاتمة هذه الكتب ولذا تميّز ((بالشمول)) و((التفصيل)) لكي يحقق التغطية العقيدية والتنظيمية لكل زمان ومكان ، هذا الى أنه أخذ على عاتقه مهمة مجابهة ((التغيير والتبديل)) أي التحريف الذي أصاب التوراة والانجيل ، واعلان الحرب عليه من اجل العودة بالمعطيات الدينية الى نقائها الاصيل.

وديبورا بوتر تقول بأنه بينما ((يقدم لنا – القرآن الكريم – الاحداث بطريقة منطقية، نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية)) وأن القرآن ((يتحدث عنها في نسق رائع واسلوب فاقع لا يدع مجالا للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة))[١٣١].

والأحداث التي تعنيها بوتر تتضمن التاريخي والكوني معا ... ما يخص الوقائع والخلق، ففي هذين المضمارين الزمنيين اللذين تحدث عنهما بوكاي أيضا وخصص لهما الصفحات الطوال يبدو البون بعيدا بين النسق القرآني المحكم وبين فوضى و(اسرائيليات) العهدين القديم والجديد.

عامر داؤد علي ، الهندي النصراني الذي اعتنق الاسلام يشير – كذلك – الى اشكاليات الكتب الدينية السابقة في ضوء المنظور القرآني المتوحد ((ان دراستي للقرآن الكريم – يقول الرجل – وضّحت امام ناظري العديد من الاشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة))[١٣٢]. وهو بهذا يعرض للميزة ذاتها التي تحدث عنها ايرفنج ، وهي أنَّ احدى الوظائف الأساسية للقرآن الكريم هو تصحيح الانحراف الذي كاد أنَّ يأتي على التوراة والانجيل كما تنزلتا من عند الله.

وثمة هندي نصراني آخر أعتنق الاسلام هو بشير أحمد شاه ، يجري المقارنة نفسها بين القرآن وبين الكتب الدينية الأخرى ((فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أي نوع في القرآن الكريم ، هذا في الوقت الذي تعاني فيه الكتب السماوية الاخرى في نسختها الحالية من

---

(١٣٠) حياة محمد ، ص ٧٢.

(١٣١) رجال ونساء اسلموا : ١٠٠/٨.

(١٣٢) نفسه ، ص ١١٨/٧.

الكثير من التغيير والتبديل)). هذا ، من بين أسباب عّدة ، قادت الرجل الى اعتناق الاسلام[١٣٣].

وهو يقارن كذلك بين ((القرآن الكريم ، الكتاب السماوي الوحيدالذي يحفظه عن ظهر قلب ألوف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الارض)) وبين ((الكتب المقدسة الأخرى المحفوظة بالخط المطبوع فقط)) ويخلص الى القول بأنه ((لو حدث لسبب أو آخر أنَّ اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور. وهكذا يحق له أنَّ يتباهى بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد. منذ أنَّ نزل به الوحي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[١٣٤]. ويشير شاه الى ميزة قرآنية أخرى لاتقل أهمية ، بصدد المفارقة بينه وبين الكتب الدينية الأخرى ((فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعترف بكافة الكتب السماوية الأخرى ، بينما نجد أنها جميعا يرفض بعضها البعض))[١٣٥]. ويفسّر الكونت الفرنسي هنري دي كاستري هذه الظاهرة بأن القرآن الكريم ((جاء ليتمّم)) الكتب الدينية السابقة ، كما أنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء والمرسلين))[١٣٦].

وينبثق عن هذا الإقرار القرآني بأصول الكتب السماوية السابقة ، تقييم وتقدير بالغين لكل الانبياء السابقين (عليهم السلام) ، باعتبارهم جميعا مبعوثين من الله سبحانه وتعالى لتحقيق كلمته في الأرض. ان هذه المسألة تكاد تكون بديهية من البديهيات التي يتعامل معها المسلمون ، أما بالنسبة لغير المسلمين فانها تكتشف اكتشافا ، فيدفع اكتشافها هذا بعض الباحثين والمفكرين منهم الى مزيد من التقدير والإجلال لكتاب الله.

درمنغم – على سبيل المثال – يتحدث عن مكانة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم. إن له هناك ((مقاما عالياً ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس ، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك اول شخص كلمّه . وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده ...))[١٣٧]. ولكن القرآن الكريم إذ يقف هذا الموقف من أحد أنبياء الله الكرام ، ويقيمه هذا التقييم ، لا يهادن لحظة واحدة – وحاشاه – ما الحقه اتباع المسيح بنبيهم عليه السلام من ((تأليه)) وبشخصيته البشرية من تبديل عن سوّيتها انحرف بها عن وضعها الصحيح. ودرمنغم يلحظ هذا المبدأ القرآني بوضوح عندما يقول ((انه – اي القرآن –

---

(١٣٣) نفسه ، ٢٠/٧.

(١٣٤) نفسه ، ٢٠/٧.

(١٣٥) رجال ونساء اسلموا : ١٩/٧–٢٠.

(١٣٦) الاسلام : خواطر وسوائح ، ص ٢٢–٢٣.

(١٣٧) حياة محمد ، ص ١٣١–١٣٢.

يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول ان عيسى (عليه السلام) كلمة الله ، أو روح الله ، ألقاها على مريم وأنه من البشر ... وهو يذمّ مذهب القائلين بالوهية المسيح (عليه السلام) ومذهب تقديم الخبز الى مريم عبادة ثم اكله وما الى ذلك من مذاهب الالحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة ، ولا يسع النصراني الا ان يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم))[١٣٨].

هنري سيرويا المستشرق الفرنسي يؤكد الظاهرة نفسها ((فمحمد (صلى الله عليه وسلم) مع كونه مبعوثا ورسولا من لدن الله ، لم يتظاهر بانكار دعوات كل من موسى وعيسى (عليهما السلام). كل مجهوده انحصر في تنقيتهما على لسان القرآن ، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية منبها الى أنَّ عيسى (عليه السلام) ليس سوى رجل ابن مريم وليس ابن الله ، والقول بأن الله له ولد (سبحانه) هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الارض وتنسحق له الجبال ، اما روح القدس فما هو الا بمثابة ملاك مثل جبريل ، دوره هو ان ينقل الى عيسى ومحمد (عليهما السلام) الدعوة المقدسة ، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم الله)) [١٣٩]. وسيرويا يعرف القرآن الكريم بأنه ((ثورة عقيدية)) وان هذه الثورة ((لا تعترف، لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكنهوت والقساوسة ، حيث لم يشعر الاسلام يوما بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي))[١٤٠] ، ذلك الذي يضع المسلم وجها لوجه قبالة الله سبحانه ، حيث لا يوجد ايما ((فراغ بين الخالق والخلق البشري)) هذا الفراغ الذي ملأه اليهود والنصارى ((بالواسطة)) !

وقد يتبادر الى الذهن ان اعتراف القرآن الكريم باصول الكتب الدينية السابقة وتطابق بعض معطياته مع بعض ما ورد فيها ، وتقييمه المؤكد باستمرار لأنبيائها (عليهم السلام)، انما يضع كتاب الله بمنزل ((المستمدّ)) من الكتب والأديان السابقة ، المعّول عليها ، وبالتالي فهو لا يعدو أنَّ يكون امتدادا تنقيحيا لها فحسب.

ان السير هاملتون كب ، كبير مستشرقي الانكليز ، يرد هذه الشبهة عندما يؤكد بانه ((مهما كان استمداد الاسلام من الاديان التي سبقته فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضاً وهي : ان المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها الى الناس تشمل بناءً دينيا جديدا متميزا))[١٤١].

---

(١٣٨) حياة محمد ، ص ١٣١-١٣٢.

(١٣٩) فلسفة الفكر الاسلامي ، ص ٣٢-٣٣ (ترجمة محمد ابراهيم ، سلسلة الثقافة الاسلامية عدد ٣٢ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة -١٩٦١).

(١٤٠) نفسه ، ص ٣٢.

(١٤١) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٥٤-٢٥٥.

وهكذا فإن القرآن الكريم يقيم ((بناءً متميزا)) ، وهذا التميّز هو الذي نلمحه فيما سبق وأن أشرنا اليه : الهجوم الصارم الذي لا يساوم ولا يلين ازاء كل ما لحق بالكتب السابقة من تبديل وتحريف.

وما يلحظه كب تلحظه كذلك الباحثة الالمانية الدكتورة الس لختستادتر من أنه إذا كانت احدى مزايا القرآن ، في عقيدة المسلم ((انه متمم للكتب السماوية)) وأنه ((يوافقها في اصول الايمان)) الا انه في الوقت نفسه ((يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضيّ عهدها ، ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل مايراد به الدوام ينبغي أنَّ يوافق كل جيل ويصلح لكل اوان))[١٤٢]. فالقرآن – اذن – فضلا عن بنيته المتميزة ، فانه الرسالة المفتوحة الدائمة لكل زمان ومكان ... انها تتجاوز نسبيات الأمة ، والتاريخ ، والجغرافيا، لكي تمضي متعاملة مع كل الأوضاع والاحوال. وليس الأمر على هذه الصفة الديناميكية في الكتب الدينية السابقة.

وكب يلحظ – كذلك – واحدة من الخصائص الاساسية التي تميز القرآن الكريم عن الكتب الدينية السابقة : أنه التوازي الفذّ بين العقل والروح واستثارتهما معا لتجاوز المنظور المادي الى العمق ، صعودا الى اعلى ((فليس غريبا أنَّ لا يجد المسلم في أي كتاب مقدس آخر شيئا ... من هذه القوة على تأييد ملكة الرؤى الحدسية وتقويتها ، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة ...))[١٤٣].

ويمضي الباحث الانكليزي الذي انتمى للاسلام : عبد الله كويليام ، لكي يقدم المزيد من الفروق بين القرآن والكتب السماوية التي سبقته ، فينتقد بمرارة ما تضمنته هذه الكتب ((من قصص وخرافات)) ومن ((اختباط عظيم في الأمور التعبدّية)) وما تتسم به من مجافاتها للعقل و((انعدام تأثيرها)) ، بل انه يذهب الى القول ((بأن الكتب المسيحية المقدسة ليس فيها شيء من الاصول الدينية))[١٤٤] ويشير بالمقابل الى ان ((من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جدا : احدهما علامة الخشوع والوقار التي تشاهد دائما على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون اليه ... والثاني خلوه من الخرافات وذكر العيوب والسيئات))[١٤٥]. كما أنه يقارن بين مبدأ التكفير الذي تقول به الكتب السابقة ، ذلك الذي يجرد الانسان المؤمن

---

(١٤٢) الاسلام والعصر الحديث (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٩).

(١٤٣) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٥٧.

(١٤٤) العقيدة الاسلامية ، ص ١٢٢-١٢٣.

(١٤٥) نفسه ، ص ١٣٨.

من مسؤوليته الذاتية ويعلقها على فعل الأخرين وبين المبدأ القرآني الذي يؤكد هذه المسؤولية حيث يكون مصير الانسان ختما على افعاله وممارساته ، وحيث يكون المؤمن مسؤولا عن اختياره.

أحمد سوسه ، اليهودي العراقي الذي اعتنق الاسلام يقف عند مسألة ((قوة التأثير)) أو ((انعدامه)) تلك التي أشار اليها كويليام فيرى ((في تلاوة آيات القرآن المجيد تأثيرا بالغا على مشاعر المرء)) حيث ((يغمره الاحساس الفياض باتصاله الروحاني وتجتذبه مهابة الإله وجلاله فيقر بكل خشوع بعجزه وضعفه أمام كلام ربه العظيم)). وهو يقارن هذا بالتأثير الذي يكاد أنَّ يكون منعدما ((لمبادىء العقائد الأخرى وكتبها)) فيجد البون شاسعا[١٤٦].

يؤكد سوسه على فارق آخر سبق وأن وقف عنده عدد من الباحثين الذين مروا بنا : سلامة النّص القرآني من التحوير والتبديل ، بينما نجدهما قد حاقا بمصاحف اليهود ((الأمر الذي اجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي بنتيجة الدرس والتنقيب)) ، وهي النتيجة التي تجيء ((تأييدا علميا للاقوال الربانية التي اوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنا على لسان النبي العربي الكريم ، صلى الله عليه وسلم))[١٤٧]. كما أنه يقف عند مسألة ((هيمنة القرآن الكريم على مابين يديه من الكتاب)) ، ويرى أنها تمارس وظيفتين خطيرتين : واولهما حماية التعاليم الإلهية الاصلية والحفاظ عليها ، وثانيهما كشف الدخيل الزائف الذي تعرضت له هذه التعاليم عبر سلسلة من التحريفات حاقت بالكتب الدينية السابقة ((فيكون – القرآن الكريم – بهذا البيان والايضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ اياها من التلاعب))[١٤٨].

أما نصري سلهب ، النصراني اللبناني ، فإنه يقف طويلا عند معطيات القرآن الكريم عن النصرانية كتابا ونبيا ، محاولا ان يستلهم منها روحا جديدا من الألفة والود والوئام قد تخفف بعض الشيء من غلواء الحقد والكراهية التي رمي بها الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) والكتاب الذي انزل عليه : إن الآية التي استطيب ذكرها – يقول سلهب – هي التي تنبع سماحا إذا تقول **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }**[١٤٩]. ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله اليهم. انها لعبارات يجدر بنا جميعا مسيحيين ومسلمين ، ان نردّدها كل يوم ، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أنَّ يتعالى حتى السماء ، لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله : فحيث تكون المحبة يكون الله. والواقع

---

(١٤٦) في طريقي الى الاسلام : ١٨٣/١-١٨٤.

(١٤٧) نفسه ، ٨٦/١.

(١٤٨) نفسه ، ٨٧/١.

(١٤٩) سورة العنكبوت ، (آية ٤٦).

أنَّ القرآن يذكر صراحة أنَّ الكتب المنزلة واحدة ، وأن اصلها عند الله ، وهذا الأصل يدعى حينا (أم الكتاب) وحينا آخر (اللوح المحفوظ) أو (الامام المبين) ...))[١٥٠].

وعن معطيات القرآن الكريم بصدد المسيح عليه السلام وأمه الصّديقة يقول سلهب : ((بوسعنا أنَّ نقول ان ما ورد في القرآن عن المسيح (عليه السلام) رائع وجميل ، فقصة الميلاد بلغت أوج الروعة ، ومشهد البشارة تجسيد للجمال ، وأوصاف المسيح والقابه وقدرته ومعجزاته تذكرنا بالانجيل ، فسبحان الله الذي جعله آية للناس ورحمة منه. واذا كان القرآن قد بلغ اوج الروعة والجمال بما ورد فيه عن المسيح ، فان ما أورده عن مريم جميل ورائع أيضاً ... وحسبنا أنَّ نذكر الأية الحادية والأربعين من سورة آل عمران : **{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ }** لندرك أنَّ القرآن يرفع مقام مريم الى منزلة لم تبلغها أية أمراة اخرى على الاطلاق. واجمل من هذا أنَّ يرد في القرآن آية تعتبر صدى صريحا لمعتقد مسيحي لم تعلنه الكنيسة الا في القرن التاسع عشر ، وهو معتقد (الحّبل بلا دنس) أي عصمة مريم العذراء من الخطيئة الاصلية ... وما هو رائع أيضاً أنَّ تكون مريم قد تكلمت وهي طفلة ، وأن يكون الله (سبحانه) قد خصّها بما لم يخص به سواها... وهكذا نتبين أنَّ القرآن يرى في مريم أم المسيح آية في اصطفائها وفي ميلادها وفي طفولتها وحداثتها ، وفي حبلها البتولي بالمسيح وفي حياتها كلها وطهارتها وقداستها وفي شخصيتها . فهي مع ابنها آية للعالمين. والاجمل من هذا كله أنَّ الله سبحانه (قدّر) اختيارها للمعجزة الكبرى منذ اول الخليقة فاصطفى أجدادها وآبائها من آدم الى عمران ...))[١٥١].

ثم يخلص الى الاستنتاج التالي : ((إذا كان المسيح (عليه السلام) قد أوصانا بأن نحب مبغضينا ونبارك لاعنينا ، فما تراها تكون وصيته بالنسبة لاولئك الذين جاء قرآنهم يكرم المسيحية والمسيح (عليه السلام) ويمجّد العذراء مريم كما لم يمجدها كتاب على الاطلاق؟))[١٥٢].

واذا كان معظم المسيحيين يجهلون ، كما يؤكد سلهب ((ماينطوي عليه القرآن من ثروة روحية واخلاقية عظيمة))[١٥٣] ، ربما بسبب من التعتيم الذي مارسته كتبهم الدينية والجدار الذي أقامه رجالهم بينهم وبين القرآن ، واذا كانوا لذلك يتخبطون في الظلمات ، فأن ابراهيم خليل احمد، القبطي المصري الذي اعتنق الاسلام ، ينادي كلا منهم باخلاص أنَّ يتحرك لكي يتجاوز

---

(١٥٠) لقاء المسيحية والاسلام ، ص ٢٢ (دار الكتاب العربي ، بيروت –١٩٧٠).

(١٥١) نفسه ، ص ٣٨–٤١.

(١٥٢) نفسه ، ص ٥٦.

(١٥٣) في خطى محمد ، ص ٣٥١.

دائرة الظلمة ويعاين كتاب الله الذي يقود الى الصراط ((ففي هذا الظلام الدامس ، ايها المسيحي يتألق القرآن الكريم ليكشف لك عن الله عز وجل ...))[١٥٤].

(١٥٤) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ، ص ١٧٢.

(٦) التاثير

والآن ، فاننا سنحاول ، قبل أنَّ نمضي الى نهاية بحثنا هذا ، أنَّ نؤشر على بعض ماقالوه عن تأثير القرآن الكريم ، وهو – بالتأكيد – تأثير واسع متشعب يمتد بالعمق والطول والعرض ، ويغطي كافة مساحات الحياة الانسانية إما على مستوى الافراد أو على مستوى الجماعات والشعوب والأمم والبشرية كافة ، ويمتد لكي يتناول قضايا الروح والجسد ، والنفس والمجتمع ، والعبادة والسياسة ، والفكر والعمل فيؤثر فيها ويعيد صياغتها كما يريد لها الله ورسوله أنَّ تكون.

انهم يتحدثون عن التأثير القرآني عمقيا باتجاه النفس البشرية وأفقيا باتجاه العالم ، وبين هذين القطبين اللذين كهربتهما كلمات الله ، تجّول الباحثون من خارج دائرة الاسلام فراؤا الكثير وكتبوا الكثير.

ومن أجل التوضيح ، أيضاً ، نستطيع أنَّ ندرج ما قيل في معطيات التأثير القرآني في التيارات الثلاثة التالية التي يتضمن كل منها حشودا من المفردات : التأثير النفسي الفردي ، التأثير الاجتماعي السياسي ، والتأثير الثقافي – الحضاري.

لنبدأ بالتأثير الاول ذي الطابع العمقي الذي يتناول النفس البشرية ، فهو – في الحق – القاعدة الأساسية وزاوية الانطلاق ، إذ لا نستطيع ان نبني أو نتصور عالما مؤمنا متوحدا دون أفراد مؤمنين متوحدين. وبمجرد نظرة سريعة على مسيرة الدعوة الاسلامية في عصر الرسالة يتبيّن للمرء كيف كان العصر المكي كله تأكيداً على هذه المسألة : بناء الانسان المؤمن الجديد الذي سيأخذ على عاتقه مهمة اقامة الدولة الراشدة ، وتمثل تشريعها الالهي ، والتحرك لتغيير العالم سياسيا وحضاريا ، وتشييد المستقبل الاسلامي الجديد.

ولقد كان كتاب الله ، جنبا الى جنب مع تعاليم رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) هما المعلم والمرشد والهادي ، وكانت البداية هي الانسان.

والباحثون من غير المسلمين ، أو من اولئك الذين انتموا بفعل هذا التأثير العجيب نفسه، يقولون الكثير عن هذه الظاهرة ، وسنكتفي هاهنا بنماذج فحسب مما قالوه وكتبوه ، ولنبدأ بالمفكر ورجل القانون الفرنسي : مارسيل بوازار ، انه يختصر التأثير بكلمات ((بالقرآن يخاطب الانسان بكلّيته : اعمق مشاعره – حسنة كانت أم سيئة – وعمله اليومي من منظور قد نستطيع نسبته الى (علم النفس التطبيقي)...))[١٥٥].

---

(١٥٥) انسانية الاسلام ، ص ١٢٧.

وهذا حقّ ، فأن الخطاب القرآني ، ربما على خلاف سائر الخطابات الدينية والوضعية الاخرى ، يتميز بالشمولية ، فيتوجه الى الانسان بكليته : عقلا وروحا وجسدا وغرائز وعواطف ووجدانا ، ليس هذا فحسب ، بل انه يتعامل مع الانسان تعاملا نفسيا تطبيقيا ، وليس كذلك الذي مارسه فلاسفة ومفكرون ورجال كنهوت ، وهم معلقون في سماوات المثل والاحلام ، حيث يعرف خداع الافكار والكلمات أنَّ يصيب الانسان بأزدواجية بين الواقع والمثال ما انزل الله ، ولا العلم ، بها من سلطان.

ان كلمات الله (سبحانه وتعالى) ، بالعكس تماما ، توحد ولا تفرق ، تشّد ولا تشتت وتمنح الشخصية البشرية بالتالي ، توحدها وسوّيتها : ((فالتنزيل – كما يقول بوازار أيضا – يوفر للمؤمنين رباطا روحيا ونفسانيا ... ذا جوهر ديني))[١٥٦].

وهذا التأثير النفسي البنائي لا يقتصر على عصر دون عصر ، ولا على بيئة دون اخرى ، انه جاهز للعمل في أية لحظة ، وفي اي مكان ((ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الاسلامية) المعاصرة ، فهو ما يزال مصدر الالهام الفردي والجماعي الرئيسي ، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير))[١٥٧].

دينيه ، يؤكد هذه الاستمرارية التأثيرية في الزمان والمكان ، واننا لنستطيع ((أنَّ نسميّ معجزة الآيات القرآنية : (المعجزة الخالدة) ، وذلك أنَّ تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان ان يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله ...))[١٥٨]. وهو – اي دينيه – يرجع في الزمن الى الوراء ، الى البدايات الاولى، فيحدثنا كما فعل كثيرون غيره ، عن هذا التأثير القرآني في النفس البشرية ، حتى وهي تقف في مواقع الخصومة والكراهية والعناد ، لقد ((أحس المشركون ، في دخيلة نفوسهم ، ان قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من اعماق قلب الرسول الملهم (صلى الله عليه وسلم)، وكلهم كثيرا ماكانوا على وشك الخضوع لتلك الالفاظ الأخاذة التي الهمها ايمان سماوي ، ولم يمنعهم عن الاسلام الا قوة حبّهم لأغراض الدنيا))[١٥٩].

درمنغم يقف ، أيضاً ، عند الظاهرة نفسها : استمرارية التأثير القرآني وقوّته ، فيشير الى ((أنَّ اسلوب – القرآن – المعجز وقوة أبحاثه ، لاتزال الى يومنا هذا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الاتقياء العابدين)) ويتحدث عن (الهّزة الروحية) التي تحدثها

---

(١٥٦) نفسه ، ص ٢٢٩.

(١٥٧) نفسه ، ص ٣٤٣.

(١٥٨) محمد رسول الله ، ص ١١٨.

(١٥٩) نفسه ، ص ١٠٦.

آياته ثم يتساءل قائلا : ((لا ريب في أنَّ هنالك ما يجب أنَّ يبحث به عن سّر نفوذه وعظيم نجاحه)) [١٦٠].

فاغليري الايطالية تلحظ كيف ((أنَّ هذا الكتاب الذي يتلى كل يوم في طول العالنم الاسلامي وعرضه ، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حسّ بالملل ، على العكس إنه من طريق التلاوة المكررة يحبّب نفسه الى المؤمنين أكثر فأكثر يوما بعد يوم. انه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي اليه حسّا عميقا من المهابة والخشية. ان في امكان المرء أنَّ يستظهره في غير عسر ، حتى اننا لنجد اليوم ، على الرغم من انحسار موجة الايمان ، الافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب ، وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوربا كلها))[١٦١].

سدني فيشر الامريكي يصف القرآن بأنه ((صوت حي يروع فؤاد العربي وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ...))[١٦٢].

كب ، المستشرق البريطاني يرى ((اننا نخطىء خطأ فاحشا إذا اقتصرنا على النظر الى هذه العقيدة (الاسلامية) نظرتنا لمذهب لاهوتي اتقن بشكل وراثي من جيل الى جيل منذ الف وثلاثمائة سنة. انها على العكس من ذلك ، يقين وايمان حي يتجدد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وافكارهم ، ولدى العربي بشكل خاص ، حين يدرس النص المقدس)) وهو يصف موسيقى القرآن بأنها (تمارس) دورا لا يمكن تحديده ، لأنها تعّد بسحرها افكار الشخص الذي يصغي الى القرآن لتلقي تعاليمه))[١٦٣]. ويصف القرآن نفسه بأنه ((المنبع الذي يرد اليه المسلم بين الحين والحين لينعش رؤاه الروحية))[١٦٤].

وآخرون من المهتمين بالقرآن الكريم تحدثوا عن تجاربهم (الذاتية) عما فعله كتاب الله في نفوسهم وهم يرحلون في سوره وآياته وكلماته ... عن قدرته المذهلة على منحهم اليقين بأن الاسلام ، وهذا هو كتابه ومنطلقه ، هو الدين الحّق الذي يتحتمّ الانتماء اليه.

بيكارد ، المؤلف والاديب الانكليزي المعروف يقول : ((ابتعت نسخة من ترجمة سافاري Savaroy الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما املك ، فلقيت من مطالعتها اعظم متعة وابتهجت بها كثيرا حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد اشرق عليّ بنوره المبارك))[١٦٥].

---

(١٦٠) حياة محمد ، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(١٦١) دفاع عن الاسلام ، ص ٥٩.

(١٦٢) الشرق الاوسط في العصر الاسلامي (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٥٤).

(١٦٣) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٠-٣١.

(١٦٤) نفسه ، ص ٢٦٠.

(١٦٥) رجال ونساء اسلموا : ٨٦/٢ (الطبعة الثالثة).

هوني ، الانكليزية التي شغفتها الفلسفة حبا فأتمت دراستها فيها ، تحدثنا عن تجربتها الذاتية مع القرآن الكريم فتقول : ((لن استطيع مهما حاولت ان أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي ، فلم اكد انتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون ، فكانت هذه أول صلاة لي في الاسلام))[١٦٦].

ليويولد فايس ، المفكر النمساوي المعروف ، يحدثنا عن تجربته وزوجته مع القرآن قائلا ((اصبحت اليسا (زوجتي) ، شأني أنا ، اكثر تأثرا مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليم (القرآن) الاخلاقية وتوجيهاته العملية. ان الله (سبحانه) بمقتضى القرآن ، لم يطلب خضوعا أعمى من جانب الانسان بل خاطب عقله ، انه لا يقف بعيدا عن مصير الانسان بل انه اقرب اليك من حبل الوريد. انه لم يرسم أي خط فاصل بين الايمان والسلوك الاجتماعي))[١٦٧].

كات ستيفنز ، المغنّي الامريكي الشهير ، يحكي تجربته هو الآخر مع القرآن : ((في تلك الفترة من حياتي بدا لي وكأنني فعلت كل شيء وحققت لنفسي النجاح والشهرة والمال والنساء .. كل شيء ، ولكن كنت مثل القرد أقفز من شجرة الى أخرى ولم اكن قانعا ابدا ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شيء بداخلي كنت اراه حقا ، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتي الحقيقية))[١٦٨].

واحمد سوسه ، اليهودي العراقي ، يقصّ علينا في سيرته ، وبكلمات قلائل ، كيف مضى به القرآن الكريم الى تغيير دين الأباء والأجداد : ((يرجع ميلي الى الاسلام ... حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الاولى ... فولعت به ولعا شديدا ... وكنت اطرب لتلاوة آياته ...))[١٦٩]. ويواصل الرجل حديثه عن التأثير القرآني ((أنا لا أظن أنَّ ثمة شيئا يؤثر في المرء الذي ادرك حقيقة الديانة الاسلامية وروحيتها بقدر تأثير تلاوة آيات القرآن المجيد على مشاعره فيغمره الاحساس الفيّاض باتصاله الروحاني وتجتذبه مهابة الإله ، جلّ جلاله ، فيقر بكل خشوع بعجزه وضعفه أمام كلام ربه العظيم ... وما لنا في هذا الصدد الا أنَّ نتأمل الاوضاع في كنائس الغرب ... ليتسنى لنا المقارنة بين الروحية الاسلامية ونفوذها في فرقانها المجيد وبين مبادىء العقائد الأخرى وكتبها))[١٧٠].

---

(١٦٦) نفسه ، ٥٩/١-٦٠ (الطبعة الثانية).

(١٦٧) الطريق الى مكة ، ص ٣١٨.

(١٦٨) رجال ونساء اسلموا : ١٠٣/١٠.

(١٦٩) في طريقي الى الاسلام : ٥١/١.

(١٧٠) في طريقي الى الاسلام : ١٨٣/١ - ١٨٤.

حتى إذا ما صعدنا باتجاه المجتمع الذي شكله القرآن ، وهو لايزال قديرا على تشكيله في كل لحظة وحاولنا أنَّ نتابع طبيعة التأثير القرآني في البنية الاجتماعية وبعلاقاتها السياسية والعامة التي تنظمها وتقودها ، فإننا سنجد ها هنا أيضا أمرا عجبا.

إن بوازار الذي يكاد يكون اكثر المعنيين بدراسة الطبيعة الايديولوجية للمجتمع الاسلامي، وأبعاد علاقته العامة ، يقف طويلا عند هذه المسألة ، فيجد كيف أنَّ القرآن الكريم ((الذي تأكد انه مرشد روحي ونظام خلقي وقانون دنيوي معا)) قدر منذ البدايات الاولى على أنَّ ((يشّكل حوله كيانا سياسيا واعيا. وفرضت جماعة المؤمنين نفسها بنيانا دقيقا ومنطقيا ، لكل مسلم فيه مكانه ومشاركته الحقيقية ...))[١٧١]. كما يلحظ بوازار جيدا كيف أنَّ القرآن الكريم ((برفضه الفصل بين الروحي والزمني)) أثبت انه ((دين ونظام اجتماعي... ومن البديهي أنَّ القرآن والسبيل الذي ظن امكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق))[١٧٢].

وهكذا فإن التأثير الاجتماعي – السياسي لكتاب الله قد تمّثل – كما يؤكد بوازار – بتشكيل المجتمع وبطبع فاعليته ، بعمق ، بالاهداف والخصائص والقيم الاسلامية.

ويمضي بوازار أبعد من ذلك ، فيجد الفارق كبيرا في هذا المجال بين التأثير القرآني وبين سائر المحاولات السياسية والايديولوجية الوضعية ذلك ((أنَّ الروح القرآني يخلق مناخ عيش ينتهي به الأمر الى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية باكثر مما تفترض التصريفات السياسية والطوابع الايديولوجية التي تسند الى الدول))[١٧٣].

وهذا حق ، فأن القرآن الكريم يعيد صياغة الانسان المؤمن عقيديا ، ويبذر في نفسه من ضمانات الالتزام ويقظة الضمير والاحساس بالمسؤولية ، ما يمكن التجربة الاجتماعية – السياسية – التي تقوم على اكتاف الجماعة المؤمنة من النجاح. ليس هذا فحسب، بل أنَّ التأثير القرآني ها هنا يمتد أفقيا كما هو واضح من عبارة بوازار ، لكي يحقق التوافق والتناغم والتماسك والانسجام في نسيج الوحدة الاجتماعية فيجعلها اقدر على الفعل والانجاز. ذلك هو المناخ القرآني ، إذا استعملنا مفردات بوازار ، والذي يعيشه المرء ، ويراه ويلمسه عبر مساحات واسعة من تاريخ التجربة الاجتماعية في الاسلام ... ونحن نستطيع ان نلمح المعنى نفسه في عبارة أخرى لبوازار سبق وان مرت بنا في مقطع آخر حيث يشير الى ان القرآن الكريم ((يوفر للمؤمنين رباطا روحيا ونفسانيا وقانونيا ذا جوهر ديني)).

---

(١٧١) انسانية الاسلام : ص ٢٠٥-٢٠٦.

(١٧٢) نفسه ، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(١٧٣) انسانية الاسلام : ص ٣٤٣.

وثمة عنصر آخر من عناصر الفاعلية القرآنية في المجتمع ، ذلك هو ما تتميز به تعاليمه السلوكية من تحدٍ ووضوح ، على خلاف العديد من المذاهب والاديان التي لا تتحدد فيها القيم السلوكية واضحة منظورة فاعلة في أرض الواقع ، وانما تسبح في فضاء واسع مترع بالغموض والضباب فتفقد قدرتها بالتالي على التمثل والتحقق. ان القرآن ((حجر الزاوية في الاخلاقية الاسلامية ، لا يصف الانسان – كما يلحظ بوازار – بمفهومه الما ورائي لأن الروح من أمر الله وحده ، ولكنه يأمره بسلوك ينبغي أتباعه))[١٧٤].

ومن عجب ان الاسلام الذي يعد من اكثر المذاهب ، بل أكثرها فعلا ، انبثاقا عن الغيب، واستنادا اليه ، يملك فدرة فذة كهذه على الحركة في قلب الواقع المنظور ، في ضوء مبادىء سلوك عملي محدد ينبغي اتباعه كتعبير عن الالتزام الديني الذي يتجاوز المنظور الى ما وراءه ... الى الغيب. وهذه المعادلة التي جنحت وتأرجحت في معظم المذاهب والاديان الوضعية ، نجدها في الاسلام تأخذ صفة التوازن المدهش ، أسوة بما يحدث في كافة التوازنات التي حققها هذا الدين. إن هذه الخصيصة التي يلمحها بوازار لتكشف عن واحدة من أهم الخصائص الاسلامية أهمية وتفّردا.

والقرآن الذي صنع مجتمعا كهذا عبر مراحل تاريخية متعاقبة ، قادر على ان يصنعه في القرن العشرين والقرن الخامس والعشرين ذلك أنَّ ((الادوات التي يوفرها التزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث))[١٧٥].

كب ، أيضاً ، يقف بعض الوقت عند ظاهرة التأثير القرآني في المجال الاجتماعي–السياسي ، فيلحظ ((ان جمهور الجماعة الاسلامية كان يتألف من شعوب احدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية اثرا اقوى واسرع من كل أثر خلفه اى قدر من الجدل العقلي أو من حذقه وبراعته))[١٧٦]. هذه الممارسة ((التي يمثل القرآن اقوى شاهد عليها))[١٧٧] ، كما يلحظ كيف ان القرآن الكريم كان ((يعيد توجيه الحياة الدينية إذ ينصب امامها اهدافا جديدة ، وهو عندما يتحدث عن التحديات التي جابهها المجتمع الاسلامي في فترات تكونه))[١٧٨] المبكر ازاء الجماعات العديدة والحضارات المتباينة التي احتوتها الفتوحات الاسلامية. يشير الى فصل للمفكر ترتون في كتابه (علم الكلام الاسلامي : Muslim Theology) يؤكد فيه ان القرآن هو الذي مكن المجتمع الاسلامي من الصمود بمواجهة هذه التحديات وحماية ذاته وبلورتها في

---

(١٧٤) نفسه ، ص ١٤٢.

(١٧٥) انسانية الاسلام : ص ٣٤٥.

(١٧٦) دراسات في حضارة الاسلام : ص ٢٥٥.

(١٧٧) نفسه ، ص ٢٦٠.

(١٧٨) نفسه ، ص ٢٦.

مجرى الصراع الذي كان يحيط بالحياة والعقل الاسلامي يومها. فلقد طرح ترتون في فصله ذاك ((صورة فذة عن الافكار التي تنفست عندما دخل الاسلام في صخب العالم الهلنستي ، ووجد نفسه محفوفا بجو من الجدل اللاهوتي ، وهي افكار ذات اختلاط وتكثر ، واحيانا ذات سخف يعز تصديقه. فكان السبيل الوحيد الذي يحفظ على المرء توازنه عندئذ ويبقى لديه على نعمة الايمان ، أنَّ يعود الى القرآن ويرفض كل بناء عقلي ... وربما لم يتضح لنا وضوحا حاسما مبلغ ما استطاع القرآن ان يؤديه في امساك العقل الاسلامي وتوجيهه عندئذ الا إذا لاحظنا أن هيئة الجماعة في تلك الظروف العصيبة لم تهن ولم تتزعزع))[١٧٩].

وكب[١٨٠] أو ترتون عندما يستخدمان عبارة (رفض البناء العقلي) لا يعنيان بطبيعة الحال رفض المجتمع الاسلامي للمعطيات العقلية أو وقوفه على الطرف النقيض منها ، فهذا لا يقول به رجل يحترم عقله وهو يرى ذلك التأكيد والألحاح العجيبين في كتاب الله وسنة رسوله ، (صلى الله عليه وسلم) ، على تقييم العقل وحّثه واحترام معطياته ، انما القصد هو ما أفرزه العقل الوضعي يونانياً كان أم رومانياً أم هلّينياً أم هنديا أم فارسيا أم محلياً ، وما طرحه كذلك العقل الديني المحرف بوذياً أم يهودياً أم مسيحياً حيث الارتطام بين معطيات هذا العقل وبين بداهات الايمان الاسلامي فها هنا كان التسليم بمقولات الخصوم تنازلا عن مطالب الايمان، وتفككا يقود المجتمع الاسلامي الى الضياع. والذي حدث هو العكس فأن القرآن الكريم قاد هذا المجتمع في تلك الظروف العصيبة الى المزيد من التوحّد ((فلم تهن هيئته ولم تتزعزع)). وثمة أيضا ما يجب أنَّ نتحفظ عليه هاهنا ، فان رفض معطيات الخصم لم يكن عملا عشوائيا يستهدف الانغلاق الكامل على هذه المعطيات. ذلك أنَّ الذي حدث هو عكس هذا تماما، وبمجرد القاء نظرة أولية على صيرورة الحضارة الاسلامية يتبين لكل ذي عينين صدق هذا الذي نقوله ، انما كان هناك موقف يتميز بأقصى درجات الالتزام العقيدي والمرونة العقلية في الوقت نفسه ، ومن خلالها أخذ المجتمع الاسلامي قيماً ومعطيات ثقافية ، ورفض قيما اخرى ، فاستطاع أنَّ يطور إمكاناته الحضارية وحمى في الوقت نفسه ذاته الاجتماعية من التفكك والتغرب والضياع.

لويون يتحدث عن عمق التأثير القرآني في الجماعات والأمم التي دانت بالاسلام ((... إن اصول الاخلاق في القرآن عالية علوّ ماجاء في كتب الديانات الأخرى جميعها ، وإن اخلاق

---

(١٧٩) دراسات في حضارة الاسلام : ص ٢٦٦-٢٦٧.

(١٨٠) أنظر عبارته التي نجد من الضروري ايرادها هنا لازالة اي التباس قد يتوهمه قارىء ما بصدد تأكيد كب على الحدس ، واعتباره نقيضا للعقل او نشاطا مستقلا يعمل بمعزل عنه " ليس غريبا ان لا يجد المسلم في اي كتاب مقدس اخر شيئا من هذه القوة على تاييد ملكة الرؤى الحدسية وتقويتها ، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة " (دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٢٥٧).

الأمم التي دانت له تحولت بتحول الازمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى (عليه السلام) ... ان اهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لاحكامه ، فالديانات التي لها ما للاسلام من السلطان الدائم على النفوس قليلة جدا، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للاسلام من الأثر الدائم))[١٨١]. ثم يخلص لوبون الى القول بأن ((القرآن هو قطب الحياة في الشرق ، وهو ما نرى أثره في أدق شؤون الحياة))[١٨٢] .

ديورانت يلحظ شمولية التأثير القرآني ودوره البالغ في هدم وإزالة الكثير من القيم السائدة في المجتمع وإقامة قيم بديلة عنها. فلقد ((ظلّ – القرآن – أربعة عشر قرنا من الزمان محفوظا في ذاكرة (المسلمين) يستثير خيالهم ، ويشكل اخلاقهم ، يشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد واقلها غموضا وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس ، واكثرها تحررا من الوثنية والكنهوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الاخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والاوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسّن احوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الاذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين ... درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض ...))[١٨٣].

كويليام يؤكد أنَّ الالتزام بكتاب الله هو السبيل الوحيد لنجاح المجتمع ونجاته من الخسران والدمار ، فالقرآن ((نظام رباني قويم ، ووضع الهي قديم ، فأتباعه في كل زمان ، والعمل بأحكامه في كل مكان مقرون به النجاح ضامن للنجاة ... ومخالفة ماجاء به هي الخسران والسبب الباعث للذل والهوان))[١٨٤].

ريسلر يلحظ ((كيف ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الاساسي لحياة المسلم)) وكيف أنه ((لم يتعرض ماجاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغيرات أو تبديلات بعيدة الغور))[١٨٥]. ويبدو أنَّ الباحث الفرنسي لم يشأ ان يلتفت أو يشير الى مافعله وتفعله قوى الاستعمار والاستعمار الجديد في غزوها الثقافي والعقائدي المدمر ، لفك هذا

---

(١٨١) حضارة العرب : ص ٤٣١-٤٣٢.

(١٨٢) نفسه.

(١٨٣) قصة الحضارة ، جزء ١٣ ، ص ٦٨-٦٩.

(١٨٤) أحسن الأجوبة : ص ٣٠.

(١٨٥) الحضارة العربية : ص ٧٥.

الارتباط بين القرآن والمجتمعات الاسلامية ، واقتلاعه من الجذور ، حيث تمكنت من النجاح في بعض المساحات ، بفضل أدواتها المساعدة ، وأخفقت في جوانب اخرى.

أما سيديّو فإنه يؤكد على ما فعله القرآن في مجال شدّ أواصر الشعوب التي انتمت للاسلام ، بمنحها أللغة المشتركة والمشاعر الواحدة ((فمما يجدر ذكره أنَّ يكون القرآن ، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب في آسيا حتى الهند ، وفي أفريقيا حتى السودان، كتابا يفهمه الجميع ، وأن يربط هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابطة اللغة والمشاعر...))[١٨٦].

وأما سلهب فأنه يتجاوز دائرة المجتمعات الاسلامية فيرى ((أنَّ القرآن لا يخاطب المسلمين فحسب ، ولايعني بشؤونهم فحسب ، إنما هو يخاطب البشر على اطلاقهم ، ويعني بشؤونهم جميعا ... فلو أقبل عليه البشر وعبّوا من احكامه وتوصياته فارتووا منها وعملوا بها، لكانت البشرية في وضع أفضل بكثير مما هي عليه))[١٨٧].

بل اننا إذا رجعنا الى البدايات الأولى ... اللحظات التاريخية التي انطلق المسلمون فيها لكي يفتحوا الارض ويقيموا دولتهم العالمية ومجتمعهم الانساني ، لوجدنا كتاب الله يقف هناك يدفع اتباعه ، يوجهّهم الى الأهداف ، ويمنحهم القوة على الفعل والمسارعة والانجاز.

كوبولد : ((القرآن هو الذي دفع العرب الى فتح العالم ، ومكنهم من إنشاء امبراطورية فاقت امبراطورية الاسكندر الكبير ، والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة ...))[١٨٨]، ((هذا هو الكتاب الذي خلق العرب خلقا جديدا ، ثم وحد صفوفهم ودفعهم الى العالم فاقتحموه وحكموه ...))[١٨٩].

درمنغم : ((سيكون القرآن نشيد حرب محرضّا المؤمنين على القتال ، جامعا لشؤونه، محركا لفاتري الهمم ، فاضحاً للمخالفين ، مخزياً للمنافقين ، واعداً الشهداء...))[١٩٠].

دينيه : ((في هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي احرزه الاسلام ، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الاوربيون لأنهم يجهلون القرآن ...))[١٩١].

فاغليري : ((ان انتشار الاسلام السريع لم يتم ، لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. ان الذي ادى الى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدّمه المسلمون للشعوب المغلوبة،

---

(١٨٦) تاريخ العرب العالم ، ص ٤٥٨.

(١٨٧) في خطى محمد ، ص ٣٥٨.

(١٨٨) البحث عن الله ، ص ٥١.

(١٨٩) نفسه ، ص ١١٣.

(١٩٠) حياة محمد ، ص ١٩٥.

(١٩١) محمد رسول الله ، ص ١١٨.

مع تخييرها بين قبوله ورفضه ، كتاب الله ، كلمة الحق ، أعظم معجزة كان في ميسور محمد (صلى الله عليه وسلم) أنَّ يقدمها الى المترددين في هذه الارض))[١٩٢].

(١٩٢) دفاع عن الاسلام ، ص ٥٩.

فماذا عن التأثير الثقافي – الحضاري لكتاب الله ؟

انهم يتحدثون عن تأثيرات عميقة في دوائر معرفية عديدة ، بعضها يتعلق بعلوم محددة، وبخاصة اللغة والأدب والتاريخ ، وبعضها الآخر ينداح لكي يغطي النشاط الثقافي ، ويطبع الحركة الحضارية ، عامة ، بميسمه المتميّز.

في دائرة اللغة والأدب مثلا ، قال بلاشير الكثير ، عبر كتابيه المعروفين (تاريخ الأدب العربي) و(القرآن) واذا كنا قد تعاملنا معهما في غير هذا المكان[١٩٣] ، فلا مبرر للتكرار ، وستجدنا مضطرين لأن نمضي الى غيره من المفكرين والأدباء والباحثين.

فصنوه الفرنسي اتيين دينيه يشير الى ما حققه القرآن الكريم على مستوى اللغة ، واعتبره ((معجزة لا تستطيع اعظم المجامع العلمية أنَّ تقوم بها ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض ، بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الينا اليوم لكان ميسورا له أنَّ يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية ، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلا أحد معاصري (رابيليه) من اهل القرن الخامس عشر الذي هو اقرب الينا من عصر القرآن ، من الصعوبة في مخاطبة العديد الاكبر من فرنسيّي اليوم))[١٩٤].

وسارتون الامريكي يلحظ الدور نفسه ، ذلك ((أنَّ لغة القرآن ، على اعتبار أنها لغة الله، كانت ، بهذا التحديد ، كاملة ... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد)). ويزيد سارتون على ما قاله دينيه ، من أنَّ كتاب الله قدر على أنَّ يجعل من اللغة العربية ((وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة))[١٩٥].

أما سيديو فيؤكد كيف كان القرآن أساسا لعلوم اللغة والأدب العربي في سائر تخصصاتهما ... لقد ((صلح القرآن ليكون نموذجا للأسلوب وقواعد النحو ... فأوجب ذلك نشوء علم اللغة. فظهور علم البيان الذي درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة ، واضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره اكثر من مئة فرع ، فأدى هذا الى ما لا حصر له من التأليف في كل منها ، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة عن الفساد بمخالطة اللغات الاخرى))[١٩٦]. وهو يشير – كذلك – الى ما أشار اليه دينيه وسارتون من جعل

---

(١٩٣) انظر كتاب (الاسلام والوجه الآخر للفكر الغربي) فصل (بلاشير : الوجه الاخر للاعجاز).

(١٩٤) أشعة خاصة بنور الاسلام ، ص ٣٥ (ترجمة راشد رستم ، سلسلة الثقافة الاسلامية ، رقم ١٧ ، المكتب المغني للنشر ، بيروت–١٩٦٠).

(١٩٥) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط ، ص ٣٧–٣٨.

(١٩٦) تاريخ العرب العام ، ص ٤٥٨.

القرآن اللغة العربية لغة عالمية ((تتكلم بها مختلف الشعوب الاسلامية في آسيا حتى الهند، وفي افريقيا حتى السودان))[١٩٧].

والكتّاب العرب من غير المسلمين ، وهم أدرى بما فعله القرآن في اللغة والأدب ، لا يبخلون بالقول.

فيليب حتي مثلا يرى ((أنَّ اعجاز القرآن لم يحل دون أنَّ يكون أثره ظاهرا على الأدب العربي. أما إذا نحن نظرنا الى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والانجيل وجدنا أنَّ الاثر الذي تركته على اللغة الانكليزية ضئيل ، بالاضافة الى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. ان القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من ان تتمزق لهجات))[١٩٨].

صنوه اللبناني الدكتور جورج حنا يؤكد ((أنه لابد من الإقرار بأن القرآن فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع ، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى. للقرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة ولطالما يعود اليه أئمة اللغة في بلاغة الكلمة وبيانها ، سواء كان هؤلاء الائمة مسلمين أم مسيحيين. واذا كان المسلمون يعتبرون أنَّ صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة ، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية ، بقطع النظر عن كونه منزلاً ... ويرجعون اليه للاستشهاد بلغته الصحيحة ، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة))[١٩٩].

أما سلهب فانه يتوقف عند التأثير القرآني في الشعر ((فاذا كنا بالأمس واليوم ، نطرب لرائع الشعر العربي ... سواء في بيروت أو دمشق أو القاهرة أو بغداد أو تونس ، أو في اي صقع من اصقاع العروبة ، فانما الفضل في ذلك يعود للقرآن ، والقرآن وحده ...))[٢٠٠] واذا ((استعرضنا بالمخيلة ما جادت به قرائح شعراء (العربية) ... من روائع الشعر ، ثم اخذنا بعين الإعتبار أنَّ جميع الروائع ما كانت لتكون لولا القرآن ، لأدركنا العطاء الجلل الذي اسداه هذا الكتاب الى التراث الشعري ، بل الى صرح الجمال في العالم))[٢٠١].

وعن دور القرآن في نشأة علم التاريخ عند المسلمين يقول المستشرق فرانس روزنثال أنَّ ((من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه الى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه)).

---

(١٩٧) نفسه.

(١٩٨) الاسلام منهج حياة ، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(١٩٩) قصة الانسان ، ص ٧٩-٨٠ (الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت-١٩٧٣).

(٢٠٠) في خطى محمد ، ص ٣٤٤.

(٢٠١) نفسه ، ص ٣٤٥.

وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية ، على مر الزمن ، احد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. واذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد سمع بعض الاخبار والمعلومات التاريخية ، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد ورد في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة. وقد ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان اليهود والنصارى حرفوا التوراة وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن ... لقد أشار القرآن إلى الكثير من الاحداث التي احاطت بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين ... وكان لذلك أهمية في التاريخ الاسلامي لأن الأحداث التي اشارت اليها الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين ، وأستثارت البحوث التاريخية))[٢٠٢].

أما كب فأنه يعتبر القرآن ((مصدرا استمد منه علم الاخلاق الاسلامي وعلم الكلام الاسلامي))[٢٠٣]. وهو يوسع نطاق التأثير الثقافي فيلحظ كيف أنَّ القرآن ((زود ضروب النشاط العلمي للحياة الاسلامية بمسارب جديدة))[٢٠٤] لكي تكون قديرة على التعبيير عن الرؤية الايمانية الجديدة ، مستجيبة لمطالبها وطموحاتها. هذه العبارة التي تذكرنا بما قاله المؤرخ الفرنسي ريسلر بهذا الصدد ، وهو أنَّ القرآن ((يظل طيلة القرون الاولى للهجرة ، من جهة المبدأ ، مصدر الالهام لكل العقلية الاسلامية ، فهو يضم بين اطرافه الافكار والاحاسيس الضرورية والكافية لتزويد اعظم الدراسات في الفكر))[٢٠٥]. كما تذكرنا بأستنتاج اخر لريسلر ، في السياق نفسه وهو ((أنَّ القرآن فوق أنه كتاب ديني)) فأنه يتضمن ((خلاصة جميع المعارف)) وانه ((ظل زمنا طويلا أول كتاب يتخذ للقراءة الى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الاسلامية))[٢٠٦].

وهذه المعطيات التي توسع نطاق الحديث عن التأثير القرآني الى الدائرة الثقافية على امتدادها ، تنقلنا بالضرورة الى المحطة الاخيرة في بحثنا الموجز هذا : مافعله كتاب الله في تكوين حضارة الاسلام الجديدة ، وصياغتها. فها هنا أيضاً يبدو الدور الكبير واضحا مؤكدا ، كما هو واضح مؤكد في سائر المناحي الاخرى. ويكفي أنَّ نشير فقط الى ماتقوله الباحثة الانكليزية ايفلين كوبولد من ((أنَّ أثر القرآن في التقدم الحضاري الاسلامي لا ينكر)) ، وانه

---

(٢٠٢) علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٤١-٤٢ ترجمة صالح احمد العلي ، مراجعة محمد توفيق حسين ، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين ، بغداد-١٩٦٣.

(٢٠٣) دراسات في حضارة الاسلام ، ص ٣٦٠.

(٢٠٤) نفسه ، ص ٢٩٠.

(٢٠٥) الحضارة العربية ، ص ٢١٢.

(٢٠٦) نفسه ، ص ٤٥.

هو الذي ((مكن العرب من انشاء امبراطورية)) فاقت سائر الأمبراطوريات التي سبقتها أو عاصرتها ((عمرانا وحضارة))[٢٠٧]، كما أنه هو الذي دفعهم ((الى نشر حضارتهم وثقافتهم وفلسفتهم ، بينما كانت أوربا المسيحية تتخبط في جهل قادح واختلاف داهم))[٢٠٨].

وما يقوله المؤلف الامريكي المعروف ول ديورانت من ان القرآن الكريم ((ظل اربعة عشر قرنا من الزمان يشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال ... ويرفع مستواهم الثقافي ... ويحرر عقولهم من كثير من الخرافات والاوهام))[٢٠٩].

ويكفي ان نشير الى عبارات هؤلاء الكتاب والباحثين لكي نقول مطمئنين مع المفكر الفرنسي فنساي مونتاي الذي انتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام عام (١٩٧٧م) من ((ان مثل الفكر العربي الاسلامي المبعد عن التأثير القرآني كمثل رجل افرغ من دمه !))[٢١٠].

---

(٢٠٧) البحث عن الله ، ص ٤٥.

(٢٠٨) نفسه ، ص ١١٣.

(٢٠٩) قصة الحضارة ، ١٣/٦٨-٦٩.

(٢١٠) رجال ونساء اسلموا ، ٥/٥٠-٥١.

خاتمـة

ذلك بعض ما قيل في كتاب الله المعجز وكلماته التامات ... وهو غيض من فيض ، لكنه ، على أية حال ، يكاد يلخّص المؤشرات الأساسية لمعطيات غير المسلمين (الايجابية) في هذا المجال.

ويكفي أنَّ نجد عددا غير قليل من هؤلاء الذين تحدثوا عن القرآن يندفعون في نهاية الامر، وربما في بدئه ، للانتماء الى دين هذا كتابه !

من ثم فان لنا أنَّ نتلمس مدى الصدق والاخلاص للحق والعلم معا ، ذلك الذي دفع هؤلاء جميعا ، وبموازاة اساءات العديد منهم ، متعمّدين وغير متعمّدين ، لأن يقولوا كلماتهم ويصوغوا استنتاجاتهم ((الايجابية)) عن كتاب الله. وصدق الله العظيم القائل في محكم الكتاب **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }**(٢١١).

(٢١١) سورة فصلت ، (الآية ٥٣).